البحوث والدراسات

من أدب الرحلة في زنجبار البحث عن «أمة واحدة»: قراءة في «رحلة أبي الحارث» للشيخ الأديب محمد بن علي بن خميس البرواني (ت١٩٥٣)

د. محمد بن ناصر المحروقي*

ملخص:

يسعى البحث إلى إبراز ثراء كتابات أدب الرحلة في زنجبار، في العصر الحديث، ويستقصي العوامل السياسيّة والثقافيّة المشكّلة لذلك الثراء، وسيتم تحقيق الهدفين من خلال تحليل كتاب "رحلة أبي الحارث" لمؤلفه الشيخ محمد بن علي بن خميس البرواني، التي طبعت أول مرّة في زنجبار، عام ١٩١٥م.

لقد لعب السلطان برغش بن سعيد بن سلطان البوسعيدي دوراً مهماً في ظهور المطبعة، عبر تأسيسه "المطبعة السلطانيّة"، التي قادت إلى نشاط صحفيّ وظهور أول صحيفة عربيّة في زنجبار سُميّت بصحيفة "النجاح"، عام ١٩١١م، ثم تبعتها صحف أخرى. وسار السلطان حمود بن محمد بن سعيد البوسعيدي على الخطا نفسها في تشجيع حركة الطباعة والصحافة. وحقّق هذا السلطان علاقات جيّدة مع روّاد الإصلاح العربيّ؛ أمثال محمد رشيد رضا وجرجي زيدان. وقد أدّت هذه العلاقة إلى توطيد متابعة مثقفي زنجبار بشكل مباشر لما ينشره روّاد الإصلاح في جرائدهم.

وأدى هذا الانفتاح على الصحافة العربيّة وعلى العالم وظهور الحركة الصحافيّة في زنجبار – إلى نشاط أدب الرحلة. وكُتبتْ في هذا السياق كتب عدة، منها "الدرّ المنظوم في ذكر محاسن الأمصار والرسوم" للسيّد حمود بن

* دكتوراه في الشعر العباسي، جامعة لندن، المملكة المتحدة، عام ٢٠٠٤م، ورئيس مركز الخليل بن أحمد الفراهيدي للدراسات العربية، جامعة نزوى، سلطنة عمان.

محمد البوسعيدي، وكتاب البرواني، الذي نحن بصدد تحليله. وقد سعى البرواني إلى تقديم أنموذج للحداثة التي على زنجبار أن تسلكها في بحثها عن هويتها؛ مما يمكن تسميته بـ "الأمّة الإسلاميّة" أو "الأمّة الواحدة".

١ – مدخل – "النهضة المرتقبة":

تتموضع "رحلة أبي الحارث"، لمؤلفها الشيخ الأديب محمد بن علي بن خميس البرواني ضمن سياق أسئلة "النهضة المرتقبة" في زنجبار. وأسميناها بـ"النهضة المرتقبة"، لنشير إلى خطاب نهضوي متعدد الأصوات – إسلامي وقومي وشبه علماني – كان منشغلاً بالبحث عن نهضة زنجبار. ولكن ثورة ١٩٦٤م، التي أطاحت بآخر سلطان من أصل عربي، هو السلطان جمشيد بن عبد الله بن خليفة بن حارب البوسعيدي، وضعت نهاية لذلك التطلُّع، بعد أن قامت حكومة وطنية تسعى إلى محو السمة الإسلامية لزنجبار.

ونتيجة للقاء الذي حدث بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، ونتيجة لتطور وسائل النقل بفضل المكتشفات الغربية، إضافة إلى ظهور المطبعة – نشطت الرحلات ونشطت معها الكتابات الأدبية التي تسجل مرئيات تلك الرحلات. وقد أذكت المرحلة الزمنية بمعطياتها السياسية والتطورات العلمية وتقدُّم الغرب "المسيحي" على العالم أجمع، وعلى العالم الإسلامي – الجدل الفكري حول ما ينبغي أن يكون عليه الموقف من الغرب.

وتهدف الدراسة الحالية إلى أن تظهر أن السلطنة الإسلامية زنجبار، ومن خلال ما كتب في أدب الرحلة؛ عبر نموذج "رحلة أبي الحارث". أسهمت – بشكل غير مباشر – في ذلك الجدل. كما ستبرز الدراسة الظروف الثقافية التي أسهمت في صناعة أدب الرحلة، وفي صياغة موقف غير "متشنج" من الغرب، وأن المطبعة السلطانية أسهمت – بشكل كبير – في نهضة الكتابة الأدبية وخلق شريحة واسعة من القرَّاء، تذكي روح الكتابة عبر تفاعلها الإيجابي مع ما ينشر من كتب، وما ينشر في الصحف العربية التي كانت تصدر في زنجبار، آنذاك.

٢– المطبعة السلطانية في زنجبار والسؤال الإصلاحي:

يُعد السلطان برغش بن سعيد بن سلطان (١٨٧٠–١٨٨٨م) "آخر

سلاطين زنجبار اسماً ومعنى"، كما يقول عنه مؤرخ زنجبار والجزيرة الخضراء الشيخ سعيد بن علي المغيري[١]؛ فقد شهدت زنجبار في عهده إصلاحات عديدة تتعلق بالبنى الخدمية الأساسية.

فمن أعماله إدخال الكهرباء، وتوصيل الماء العذب إلى جزيرة زنجبار، وتعبيد الطرق. كما قام ببناء "بيت العجائب"؛ أول بيت من ثلاثة أدوار مزود بمصعد كهربائي في شرق إفريقيا كلِّها. ومن بين أعماله الثقافية إرسال الشاب محمد بن إبراهيم إلى القاهرة لدراسة الموسيقى العربية. وقد تخصص هذا الشاب في العزف على القانون. وعندما عاد من رحلته العلمية، أحيا – مع مجموعة من الهواة الذين تدربوا لديه – حفلة في بيت العجائب، حضرها السلطان برغش، وتجمهر الناس حول القصر[٢].

أما أهم أعماله على الإطلاق – في نظري – فهو إنشاء المطبعة السلطانية، التي عنيت بطبع الكتب الدينية والأدبية، وأسهمت لاحقاً في ظهور الصحافة العربية في زنجبار منذ مطلع القرن العشرين، كما سنرى لاحقاً.

وربما بزغت فكرة إنشاء مطبعة في ذهن السلطان برغش لأول مرة عندما زار أوروبا سنة ١٨٧٥م، وفي طريقه توقف في القاهرة وشاهد المطابع العربية. وقد اشترى مطبعتين؛ الأولى يعتقد أنه اشتراها من إنجلترا عام ١٨٧٥م. وقد

---

(١) المغيري، سعيد بن علي بن جمعة. (١٩٧٩م). **جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار** (وزارة التراث القومي – مسقط). ط١. ص ص ٢٢٦–٢٣٧. وهذه هي أصح طبعات هذا الكتاب، وعليها سنعتمد في أبحاثنا؛ إذ لم ينلها التغيير الذي نال الطبعات التالية.

(٢) ينظر: المحروقي، محمد. (٢٠٠٠م). **الشعر العماني الحديث؛ أبو مسلم البهلاني رائداً** ١٨٦٠–١٩٢٠م (المركز الثقافي العربي - بيروت). ص ص ٢٨–٢٩. والواقع أن الحركة الموسيقية نشطت ثانية في عهد السلطان حمود بن محمد (١٨٩٦–١٩٠٢م)، وقد وجدنا في أرشيف زنجبار أغاني بالفصحى وباللهجة المصرية، يبدو أنها نظمت خصيصاً بطلب من السلطان ولُحِّنت له. ونأمل أن نعود إليها في بحث آخر.

ابتدأت العمل سنة ١٨٧٩ م. والثانية اشتراها من الآباء اليسوعيين في لبنان ١٨٨٤م، واستقدم معها طاقماً للعمل[٣]. وكانت المطبعة السلطانية تطبع الأوامر الرسمية والكتب الدينية والأدبية، ولاحقاً أصبحت تطبع الصحف باللغات العربية والإنجليزية والسواحلية. ونعتقد أن ظهور المطبعة في فترة مبكرة نسبياً في زنجبار في عهد السلطان برغش بن سعيد بن سلطان هو السبب المباشر وراء انتعاش حركة التأليف والطبع في هذه السلطة، وفي عمان ووادي ميزاب بالجزائر، حيث يوجد الإباضية[٤]. أما الشاعر الشهير أبومسلم ناصر بن سالم بن عُديِّم البهلاني فيقرِّظ عدداً من الكتب التي طبعت في المطبعة السلطانية، وهي: "منهل الورَّاد"، لأحمد بن أبي بكر العلوي، و"هميان الزاد إلى دار المعاد" لمحمد بن يوسف أطفيش، و"حاشية الترتيب" لمحمد بن إبراهيم الورجلاني، و"مدارج الكمال" لعبد الله بن حميد السالمي[٥]. ويعدد مارتن كوسترس (Custers) في كتابه المهم "مناشط الطبع الإباضية في الشرق والغرب في الفترة ١٨٨٠– ١٩٦٠م (الستينات)"[٦] ١٥ مدخلاً مطبوعاً. منها كتب كانت في عدة أجزاء، ككتاب القاموس، المشار إليه، الذي طبع منه ١٩ جزءاً. لقد قامت المطبعة السلطانية بالطباعة لأعلام المذهب الإباضي. ومما يذكره كوسترس أنها طبعت للشيخ الحجة أبي محمد سعيد بن خلفان بن محمد الخليلي الخروصي كتابي "لطائف الحكم في صدقات النعم" و"النواميس الرحمانية في تسهيل

(٣) M.H. Custers. (2006). Ibadhi Publishing Activities in the East and West c. 1880 - 1960s, (Maastricht- The Netherlands), pp.56-7.

(٤) هناك تفاعل إيجابي بين إباضية المشرق/ عمان وإباضية المغرب/ الجزائر وتونس، خاصة في مجالي الطبع والصحافة. وقد صوّرنا من دار الوثائق القومية بالقاهرة صحيفة اسمها "نبراس المشارقة والمغاربة"، أصدرها مصطفى بن سعيد الشماخي في القاهرة (حارة الليمون نمرة (٩) أول شارع السروجية). صدر العدد الأول منها في ٣٠ يوليو سنة ١٩٠٤م. (رقم عمومي ٤٢٥٧٠).

(٥) المحروقي، محمد. مصدر سابق. ص ١٤٧.

(٦) سبقت الإشارة إليه في هامش (٣).

الطرائق إلى العلوم الربَّانية". وطبعت للشيخ المجدد أبي شيبة الحمد نور الدين عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي كتاب "مدارج الكمال، نظم مختصر الخصال"، سنة ١٨٩٨م. وللشيخ قطب الأمة وبحر الأئمة محمد بن يوسف اطفيش كتاب "هميان الزاد إلى دار المعاد"، في ١٤ جزءاً، بين سنتي ١٨٨٧ – ١٨٩٧م. أما بالنسبة إلى علماء زنجبار فقد طبعت لأبي مسلم ناصر بن سالم بن عديِّم البهلاني كتاب "اللوامع البرقية في رحلة مولانا السلطان المعظم حمود بن محمد بن سعيد بن سلطان بالأقطار الإفريقية الشرقية سنة ١٣١٦هـ، ١٨٩٩م"، وكتاب "المولد المسمَّى النور المحمدي".

لقد ساعدت المطبعة على ظهور الصحف الرسمية والإخبارية الثقافية العامة باللغات العربية والإنجليزية والسواحلية والأوردية. إن نشاط المطبعة السلطانية والمطابع التي ظهرت لاحقاً؛ مثل مطبعة النجاح التابعة لصحيفة النجاح[٧] بزنجبار – عمل على ظهور العديد من الصحف، وفي فترة مبكرة، مما أسهم في توسيع قاعدة القرَّاء.

ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على ولادة الصحافة العربية في زنجبار ذلك التفاعل الإيجابي النشط الذي كان بين روَّاد الصحافة العربية الأوائل في القاهرة وبيروت والآستانة والإسكندرية وباريس ولندن وبين السلطانين حمود ابن محمد بن سعيد (١٨٩٦–١٩٠٢م) وابنه علي بن حمود (١٩٠٢–١٩١٩م). ويحتفظ أرشيف زنجبار بكثير من مراسلات كانت تجرى بين روَّاد الصحافة العربية وهذين السلطانين، سنعرض لبعضها؛ لبيان أثر ذلك التفاعل الإيجابي في ولادة الصحافة العربية في زنجبار. وقد اطلعنا في الأرشيف المشار إليه على وثيقة مهمة تتضمن قائمة الصحف العربية التي اشترك فيها السلطان حمود (ملحق ١)، وكانت تصله بانتظام. إن الصحافة العربية من مختلف عواصمها

(٧) لا نعرف الكثير عن هذه المطبعة سوى أنها كانت تطبع صحيفة النجاح، وأنها طبعت سنة ١٩١٤م كتاب "رحلة أبي الحارث"، الذي نحن بصدده الآن. ونأمل أن تفضي أبحاثنا الحالية إلى تكوين صورة واضحة عن هذه المطبعة والمطابع الأخرى.

القديمة كانت تجد طريقها إلى السيد حمود؛ فمن القاهرة كانت تأتي الإخلاص والمنار والهلال والمؤيد والرائد المصري والراوي وغيرها. ومن بيروت تأتي الإقبال وثمرات الفنون. ومن لندن ومرسيليا تصل الخلافة والمرصاد. وتأتي أبونظارة من باريس. ومعظمها يصل في مجموعات لتغطي فترات طويلة، ويأتي أكثر من نسخة للعدد الواحد. وتذكر الوثيقة الاشتراكات المدفوعة بالجنيه الإنجليزي. كما تشير الوثيقة إلى أمر مهم، وهو أن زنجبار متابعة جيدة لجديد الصحافة العربية؛ فتشير الوثيقة إلى ثلاث صحف جديدة الصدور، هي الراوي والمرصاد والفضيلة. وتفيد المراسلات المشار إليها أن محرري تلك الصحف وجدوا في السلطانين رافداً لهم في مشاريعهم الصحافية؛ وذلك عن طريق اشتراكاتهما، وشراء ما يطبع من كتب لأولئك المحررين وغيرهم، ودعمهما المادي المباشر لتلك الصحف. وسنعرض هنا لنموذجين – فقط – لأجل التدليل؛ ذلك أن الاستطراد ليس محله هنا، وإنما يحتاج لمعالجة مستفيضة مستقلة تدرس تلك المراسلات، التي يبلغ عدد ما تحصلنا عليه العشرين رسالة.

فهذا المصلح الكبير الشيخ محمد رشيد رضا يكتب إلى سلطان زنجبار، بتاريخ ٢٠ من جمادى الآخرة ١٣١٩هـ/(٥/١٠/١٩٠١م) (ملحق ٢)، رسالة يعرِّف فيها السلطان برسالة صحيفة "المنار" التي أسسها منذ أربع سنين (زمن كتابة الرسالة)، وطالباً الدعم المادي. وثمة رسالة ثانية من صاحب "المنار" لسلطان زنجبار يعرِّفه بمشروع جديد له، وهو تأسيس "جمعية العلم والإرشاد"، بالآستانة، ويطلب فيه دعم السلطان أيضاً (ملحق ٣).

والنموذج الثاني هو الأديب المشهور جرجي زيدان محرر "الهلال". وأقدم مراسلات زيدان للسلطان حمود هي المؤرَّخة في ٣٠ من أكتوبر سنة ١٨٩٩م (ملحق ٤)، يشير فيها إلى تسلمه مبلغ ستة جنيهات عن اشتراك السنة السابعة. كما يذكر أنه يريد أن يُخَص بنشر الأخبار السلطانية ويسبق غيره من الصحفيين. وهناك ثلاث رسائل أخرى من جرجي زيدان للسلطانين حمود وعلي، سنستعرضهما في دراسة أخرى.

إن تلك الرسائل، مجتمعة، دليل على إسهام سلاطين زنجبار في دعم الصحافة العربية في نشأتها، وقد تخلَّى عن هذا الدور الكثيرون من ولاة الأمر لعدم رغبة الدولة العليَّة (العثمانية)، في تنشيط حرية الرأي بين العرب للحفاظ على استمرارها. والشيخ محمد رشيد رضا يذكر صراحة ذلك الموقف؛ فقد كان يريد لمشروعه الإصلاحي – وهو تأسيس "جمعية العلم والرشاد" – أن يكون مقره بالحجاز، لكنه عدل عن ذلك؛ لأن " الدولة العثمانية لا تسمح الآن بإيجاد ذلك في الحجاز؛ **لأنها موسوسة من العرب، وتخاف أن يكون ذلك مقوياً لهم ناهضاً بهم...**" (الإبراز من عندنا. ينظر ملحق (٢)). ونحن نعرف أن العديد من الصحافيين الشوام هاجروا إلى مصر هروباً من بطش الولاة العثمانيين.

وقد أسهمت "الهلال" بشكل آخر في إذكاء الوعي الصحفي عبر نشرها لمساهمات كتَّاب عمانيين، كنشرها لمقالة الشيخ ناصر بن سليمان اللمكي، سنة ١٩٠٦م، في بابها الثابت "أشهر الحوادث وأعظم الرجال"[٨]. وكانت تلك المقالة بعنوان "حميد بن محمد المرجبي ؛ فاتح الكونغو". وقد استهلت "الهلال" هذه المقالة بتقديم مهم عن دور زنجبار في تقديم أعلام ورموز يمكن أن يقتدي بها الإنسان العربي؛ فجرجي زيدان وهو رائد نهضة أدبية، عبر رواياته التاريخية ومقالاته في "الهلال"، يعد المترجَم له من "نوابغ الشرق"، الذين يعيدون الثقة إلى الإنسان العربي المنكسر الذي لا يرى النجاح إلا "بين أهل الغرب".

إن تلك الصحف التي كانت تصل إلى زنجبار عبر اشتراكات السلاطين كانت تلقى طريقها إلى صفوة المجتمع من العلماء والشعراء. وأبرز هؤلاء الشاعر الكبير وأول محرر لصحيفة عربية أبو مسلم ناصر بن سالم بن عديم

(٨) نشرت المقالة في شهر يوليو، ص ص ٥٧١–٥٨٠. وقد أعدنا نشرها في كتاب "مغامر عماني في أدغال إفريقيا، حياة حمد بن محمد بن جمعة المرجبي. (١٨٤٠–١٩٠٥م). المعروف بتيبو تيب" (منشورات الجمل – كولونيا ووزارة التراث والثقافة – مسقط: ٢٠٠٦م). ط٢. ص ص ١٨٥–١٩٧، وهو سيرة ذاتية للمرجبي.

البهلاني، منشئ صحيفة "النجاح" ١٩١١م. لقد كان أبو مسلم، القاضي والكاتب والشاعر، يستعان به لكتابة رسائل أو ردود لرسائل وردت سلطان زنجبار؛ وذلك لما يتمتع به من أسلوب بلاغي متميِّز. وبعض تلك المراسلات مع محررين عرب. ويحتفظ أرشيف زنجبار بمراسلة إدارية من الكاتب السلطاني سالم بن محمد الرواحي إلى أبي مسلم (ملحق ٥) ينقل إليه أمر السلطان بكتابة عدة خطوط؛ أحدها إلى مدير جريدة طرابلس على أن يكون "الجواب جميلاً":

"... مولانا أبقاه الله أمر بكتابة خطوط. فواصلك خطان، أحدهما من مدير جريدة طرابلس. أكتب له جواباً جميلاً، هكذا أمر مولانا، عن وصول ما أرسله كما ستراه في خطه ...".

ومن هذه الرسالة نفهم اتصال أبي مسلم بالصحفيين العرب، واطلاعه على ما يرسلون من صحف – في الغالب – ورسائل طلب مساعدات مالية أحياناً، كما رأينا.

إن جزيرة زنجبار جزيرة صغيرة نسبياً، وعدد سكانها من العرب العمانيين قليل، والعلاقات بين السلطان ورعاياه قائمة على التواصل المباشر. والبرزة أو المجلس العمومي الذي كان يعقده السلطان كل يوم يحضره كثير من الناس(٩). فلا نستبعد أن يطلع كثير أو قليل من الناس على تلك الجرائد، ولا سيما أن بعضها يصل إلى زنجبار في أكثر من عدد. وقد شهدت زنجبار ظهور صحف عديدة خلال الفترة (١٨٩٢م – ١٩٦٤م) بلغت عشر صحف، سواء أكانت رسمية مثل (صحيفة زنجبار **Zinjibar Gazette** والصحيفة الرسمية **Official Gazette**) أم غير رسمية مثل (النجاح) و(النادي). ونلاحظ أن الجمعيات الأهلية اتخذت صحفاً تعبِّر عن صوتها كـ (النجاح) و(الفلق) اللتين

(٩) هو تقليد ابتدأه السلطان برغش بن سعيد، في بيت العجائب، واستمر عليه السلاطين بعد ذلك. ينظر سعيد المغيري، مصدر سابق، ص ص ٢٢٧-٢٢٨.
وحتى الآن يذهب حاكم زنجبار في يوم العيد، إلى قاعة الاستقبال ببيت العجائب، لاستقبال المهنئين وتقديم كلمة متلفزة إلى الشعب يهنئهم فيها بالعيد.

كانتا تعبران عن صوت الجمعية العربية، وصحيفة (الأم) الممثلة لحزب الأمة. كذلك نلاحظ أن محرري الصحف العربية كانوا من الأدباء المعروفين كالبهلاني والمسكري. وهو حال الصحافة العربية في نشأتها المدينة لأدباء أمثال جرجي زيدان وغيره.

وتشير الباحثة مريم حمداني إلى أن صحيفة (الفلق) كانت تطبع ٥٠٠ نسخة لكل عدد، وكذلك كان عدد نسخ جريدة (النهضة)[١٠]. وهما الصحيفتان الأساسيتان الناطقتان بالعربية، والممثلتان للاتجاه الإسلامي العربي. وإذا أخذنا في الاعتبار صغر عدد سكان جزيرتي زنجبار والجزيرة الخضراء وقلة عدد الناطقين بالعربية نسبةً إلى العدد الكلي للسكان أمكننا أن نقول إن قاعدة القرَّاء كانت جيدة إلى جيدة جداً. لقد عملت الصحافة في زنجبار على توثيق ارتباط زنجبار بالعالم؛ عبر متابعتها لما يدور فيه وما يكتب عنه من تقارير في الصحافة العالمية والعربية. وهو أمر من شأنه أن يخلق وعياً لدى القرَّاء بالعالم، ورغبة في تعرُّفه؛ مما نشط الرحلات وأدب الرحلات. كما أسهمت الصحافة في نشاط المؤلفات الأدبية كالشعر والنثر الفني وطباعتها؛ نظراً لوجود متابع متوقع لها، مما سنعرض له في الفقرات التالية.

٣ – أدب الرحلة في زنجبار، الأنا والآخر:

إن ازدهار الحركة الثقافية في زنجبار في القرن العشرين وتكوُّن شريحة من القراء أدَّى إلى ازدهار "النثر الفني" المتصل بأدب الرحلة. وتحضر الكتب التالية شاهداً على ذلك النشاط الذي لحق بهذا الجنس الأدبي الجميل:

١– "الدرُّ المنظوم في ذكر محاسن الأمصار والرسوم"، للسيد حمود بن أحمد بن سيف البوسعيدي، مراجعة وتقديم د. محمد المحروقي (وزارة التراث والثقافة: ٢٠٠٦م) ط١. ٢– "تنزيه الأبصار والأفكار في رحلة سلطان زنجبار"،

(١٠) Mariam M. A. Hamadani. (1992). The Mass Media in Zanzibar. 1892-1974.in International Conference on the History and Culture of Zanzibar. Zanzibar December 14-16. p. 9.

زاهر بن سعيد، رتَّبه لويس صابونجي، راجعه د. إبراهيم عبده، (وزارة التراث القومي والثقافة: دت م) ط١. ٣- "رحلة أبي الحارث"، محمد بن علي بن خميس البرواني (مطبعة النجاح : ١٩١٥ م). ٤- "رحلة عظمة السلطان المطاع خليفة بن حارب - حفظه الله - إلى أوروبا لحضور تتويج صاحب الجلالة جورج السادس، ملك بريطانيا العظمى"، سعيد بن علي بن جمعة المغيري (وزارة التراث القومي: ١٩٧٩م) ط ١. نشرت هذه الرحلة ملحقاً بكتاب جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، للمؤلف نفسه. هذه الإسهامات المهمة، وإن كان يجمعها جنس واحد هو "أدب الرحلة" فإنها تباينت في دوافعها وفي الوجهة التي اتجهت إليها. ولعل الجدول التالي يوضح ذلك التباين:

الجدول (١)
الآخر في كتب أدب الرحلة في زنجبار

م	الرحلة	صاحبها	سنة الرحلة	وجهة الرحلة	من الآخر؟
١	الدرُّ المنظوم	حمود البوسعيدي	١٨٧٢م	الدولة العثمانية (الحجاز - مصر- الشام)	١- الأوروبي/ النصراني ٢- العربي المصري ٣- العربي الشامي
٢	تنزيه الأبصار	زاهر بن سعيد/ السلطان برغش	١٨٧٥م	الدولة العثمانية (مصر) + أوروبا (بريطانيا - فرنسا)	١- الأوروبي/ النصراني ٢- العربي المصري
٣	رحلة أبي الحارث	محمد البرواني	١٩١٤م	الدولة العثمانية (مصر- الشام)	١- الأوروبي/ النصراني ٢- العربي المصري ٣- العربي الشامي
٤	رحلة السلطان خليفة بن حارب	سعيد المغيري/ السلطان خليفة	١٩٣٧م	الدولة العثمانية (مصر) + أوروبا (بريطانيا - فرنسا)	٤- الأوروبي/ النصراني ٥- العربي المصري ٦- العربي الشامي

نلاحظ مبدئياً أن هذه الرحلات توزعت بين رحلات رسمية لسلطانين زنجباريين هما السيد برغش بن سعيد والسيد خليفة بن حارب، وبين رحلتين

شخصيتين ؛ الأولى قام بها السيد حمود بن أحمد البوسعيدي، والثانية الشيخ محمد بن علي البرواني. وقد اتخذت الرحلات جهتين أساسيتين ؛ **الأولى** الدولة الإنجليزية بالنسبة للرحلات الرسمية، و**الثانية** بعض الأراضي العربية الواقعة في الدولة العثمانية. وتمت أول رحلة عام ١٨٧٢م وآخرها كانت عام ١٩٣٧م. ومن هذه الناحية فإن عهد السيد برغش بن سعيد بن سلطان (١٨٧٠-١٨٨٨م) – الذي عرف بإصلاحاته الجمَّة – كما أسلفنا – يكون قد ظفر برحلتين اثنتين من أصل أربع رحلات؛ أي ما يمثل نصف العدد.

أما الآخر الذي تتعامل معه الذات في هذه الكتابات فقد حضر – إجمالاً – الآخر الأوروبي والآخر العربي(١١). وأهداف النمط الأول من الرحلات/ الرحلات الرسمية – في الغالب – هي أهداف سياسية، تتمثل في محاولة كسب الآخر أو الاقتراب منه عبر قناة التواصل الخلاق والزيارات الرسمية المتبادلة. ولا يخفى على المتتبع لمجريات علاقات السيد برغش بن سعيد بالأوروبيين ذلك التباين الشديد في بعض الأمور بين الطرفين. لقد كان السيد برغش يدرك أطماع الأوروبيين عامة في القارة السمراء. ويتتبع – بخوف شديد – مخططاتهم الاستعمارية.

أما النمط الثاني من أدب الرحلة/ الرحلات الذاتية، التي من ضمنها رحلة أبي الحارث، فلعل من دوافعها الرئيسية تعرُّف حياة المسلمين الآخرين في المدن الإسلامية، ونقلها – عبر الكتابة الأدبية – إلى القارئ المسلم في زنجبار، وفي الشرق الإفريقي عامة، على اعتبار أن زنجبار هي مصدر الإشعاع الديني والثقافي في تلك البقعة من الأرض.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا ذلك الاتجاه الحثيث إلى الأراضي الإسلامية؟

---

(١١) نعمل على بحث بعنوان "الجميل المتوحش"، وهو قراءة لحضور الآخر الأوروبي من خلال كتاب "تنزيه الأبصار والأفكار ".

إن الرحلتين اللتين تقعان في هذا النمط، وهما "الدُّرُّ المنظوم" للبوسعيدي و"رحلة أبي الحارث" للبرواني، اتجهتا إلى أراض إسلامية، ومدن إسلامية عتيقة كدمشق والقاهرة. وربما كان تأكيد المعطيات التاريخية إبان العصور الإسلامية الزاهرة لتلك المدن هو نوع من الرجوع إلى الماضي وإلى تلك الأيام المشرقة للأمة الإسلامية الواحدة. إنه نوع من البحث عن الأمة الواحدة المتحدة، في لحظة تاريخية مهمة تتعرض فيها تلك الأمة لما يضعضعها ويضعفها أمام عدوها، المتمثل في الآخر الغربي، الطامع فيها. ولم تكن السلطنة الإسلامية زنجبار نفسها بمعزل عن تلك الأطماع، كما أشرنا. وهذه المقاربة تمكننا من فهم موقف البوسعيدي المتعاطف مع الدولة العثمانية ممثلة الخلافة الإسلامية ورمز المسلمين جميعاً[١٢].

ولا يبعد عن ذلك موقف البرواني الفرح مما رآه من مظاهر قوة الأمة الإسلامية، كما سيتضح لاحقاً، وإن كان يرصد بعض صور بُعد الأمة عن الجادَّة فذلك من باب الغيرة، أو باب النقد؛ طمعاً في إعادة الأمة إلى مجدها الغابر، ولدفعها لأن تأخذ بأسباب قوتها ومنعتها. وهذا الخطاب النهضوي الإسلامي يلتقي مع دعوات روَّاد النهضة الإسلامية كرشيد رضا ومحمد عبده. وقد سبق أن رأينا اتصال زنجبار بالصحف الإصلاحية كـ"المنار"، وردود الفعل حيال ذلك عبر ظهور صحافة نهضوية في زنجبار كصحيفة "النجاح"، لمحررها أبي مسلم البهلاني.

(١٢) ينظر كتاب "الدرُّ المنظوم في ذكر محاسن الأمصار والرسوم"، للسيد البوسعيدي، حمود بن أحمد بن سيف. مراجعة وتقديم: المحروقي، محمد. (وزارة التراث والثقافة: ٢٠٠٦م). ط١. ص ٩٦. عندما يذكر جيوش الدولة العثمانية وكثرة عدد محاربيها، يعقب قائلاً: "نسأل الله أن ينصر دولة المسلمين".

٤ – الشيخ محمد البرواني "الإصلاحي المعتدل":

هو الشيخ محمد بن علي بن خميس بن سالم البرواني[١٣]. وكانت ولادته في زنجبار سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م، في أسرة متعلمة تعمل في التجارة، كما هي عادة الكثير من العمانيين في شرق إفريقيا. لقد كان والده علي بن خميس واحداً من علماء زنجبار المشهود لهم، ولاسيما في مجال النحو والعروض. كما كان شاعراً مقرباً من السلطان برغش بن سعيد في بادئ الأمر. وكان ينظم مدائح في هذا السلطان، فتطبع طبعات خاصة في المطبعة السلطانية، وتقرأ في البرزة التي يعقدها السلطان[١٤]. وقد اشتغل الشيخ علي بالتجارة، وكان من الأثرياء المعروفين، كما عمل بالتعليم. وكانت له مكتبة علمية زاخرة بالكتب الأدبية والدينية. وقد أسهمت بيئة الوالد في توجيه الولد وجهة أدبية، مستفيداً من نهمه في قراءة الأدب الرفيع.

درس الشيخ محمد في صباه على يد عدد من المشايخ المعروفين العلوم التقليدية في النحو والتوحيد والفقه، وما إلى ذلك من العلوم الدينية. وكانت زنجبار – آنذاك – حاضنة للكثير من المعلمين والعلماء من عمان وحضرموت، على وجه الخصوص. وقام الشيخ محمد بالحفاظ على الإرث العلمي المتمثل في تدريس الناشئة علوم الدين والعربية. كما كان صاحب أملاك يشرف عليها بنفسه، مثل مزرعته في دونجة. وقد كانت هذه المزارع – كما هو الشأن عند العمانيين الآخرين – مصدر دخل اقتصادي جيد، لمزروعات مطلوبة داخلياً، في زنجبار، وخارجها مثل القرنفل والنارجيل والتوابل.

كان الشيخ ذا شخصية منفتحة ومتطلعة، ولا تقنع بالسائد والمألوف؛ فقد بدأ، عندما بلغ الخمسين من العمر، بتعلم اللغة الإنجليزية، رغبةً في الاطلاع على

---

(١٣) استفدنا في ترجمة الشيخ البرواني من مقالات تأبينية بالعربية والإنجليزية نشرت بعد وفاته. وقد أمدَّنا بها - مشكوراً - حفيد المترجم له نبهان بن تغلب البرواني.

(١٤) ينظر كوسترس (Custers). مصدر سابق. ص ٥٦.

الفكر والأدب الإنجليزي اطلاعاً مباشراً، مدفوعاً إلى ذلك بميوله الأدبية وإرادته القوية. وثمة سبب آخر يكمن وراء تلك الرغبة في تعلّم اللغة الإنجليزية، هو إعطاء المثال العملي على ما ينبغي أن يكون عليه الموقف من الغرب. ولا ندري على وجه اليقين المدى الذي بلغه الشيخ في تعلـُّم الإنجليزية، إلا أننا نعرف أن عمله هذا كان ملهماً للأجيال الشابة في الساحل الإفريقي حول ما ينبغي أن تكون عليه الصلة مع الغرب الاستعماري. فعلى حين يريد بعض المناوئين للاستعمار أن يقاطعه مقاطعة تامة، على جهل به، ودون معرفة عميقة لفكره ومخططاته، وإنجازاته الحضارية، انحاز الشيخ البرواني إلى موقف آخر يفصل بين الاستعمار، كوجه مكروه، وبين تحصيل السبل الموصِّلة لمعرفته ومعرفة نواياه.

ولم يكن هذا الانحياز العقلاني مدعوماً برؤية نظرية مكتوبة، بل مؤكداً بموقف عملي تمثل في تعلّم اللغة الإنجليزية، وربما في الثناء المبطَّن على المنجزات الحضارية للغرب، متمثلة في وسائل النقل الحديثة (الباخرة والقطار والسيارة)، مما يذكره الشيخ في هذه الرحلة – كما سنرى – ومن عدم نقده – على الأقل – لأنظمة استعمارية مباشرة أو متعاونة مع الاستعمار، كما هو الحال في زنجبار وعدن وبقية الموانئ التابعة للدولة الإنجليزية، إبَّان النصف الأول من القرن العشرين. والشيخ البرواني يستشعر المسؤولية تجاه مواطنيه، لذا يريد أن يبصِّرهم بما ينبغي أن يكون عليه الموقف من الغرب ومن التكنولوجيا الغربية. ونحن نعلم أن هذا الموقف من الغرب – قبولاً أو رفضاً – كان من أهم القضايا التي عالجها المفكرون الإصلاحيون منذ مطلع القرن العشرين.

ويرى الباحث ريز (Reese) أن المفكرين المسلمين في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تباينت مواقفهم إلى اتجاهين اثنين متضادين. الأول يدعو إلى تبنِّي المنطق العلمي الغربي الذي قاد إلى العالم المتمدن، ويمثـّله محمد عبده (ت ١٩٠٦م) ومحمد رشيد رضا (١٩٢٥م). والموقف الثاني هو الموقف الرافض للغرب ولفكر الغرب، ويمثـّله يوسف إسماعيل نبهاني، الذي يرى أن التعليم الغربي مفسدة ينبغي محاربتها.

وهو يضع موقف الشيخ البرواني بين هذين الموقفين المتباعدين[١٥]. فلا هو يرفض الحضارة الغربية رفضاً مطلقاً، ولا يقبلها بكل علاتها الماديَّة، وإنما الأمر عنده هو الاستفادة من منجزات الحضارة الغربية دون التفريط في القيم التقليدية، متفقاً في ذلك مع أستاذه الشيخ أحمد بن أبي بكر بن سميط[١٦].

ويستلهم الكاتب الصحفي جمعة علي، المعاصر للبرواني، بعد أن اطلع على ترجمة للبرواني بُعيد وفاته، من موقف الشيخ محمد ذلك البعد العقلاني فيما ينبغي أن يكون عليه الموقف من الغرب، فيقول:

> "إنني ألمس هذه القضية؛ لأنها تلائم ما كان يفكر به المرحوم الشيخ عندما قرر، متأخراً وعندما بلغ الكبر، أن يبدأ بدراسة اللغة الإنجليزية. وربما كان من المناسب – وربما لا – أن نقترح أن وسيلة الفكر المدني هي – كما قال السيد راجاجوبالاشاري – لطلاب الجامعة ذات مرة: إنه من الصعوبة بمكان أن نفكر أن بريطانيا قدمت هدية أفضل من اللغة لمستعمراتها الواسعة"[١٧].

إن اللغة الإنجليزية – كما يرى الصحفي – هي أفضل هدية لذلك الاستعمار، أخذاً في الاعتبار الظروف السائدة في زنجبار وساحل شرق إفريقيا آنذاك المتعدد الأعراق واللغات. إن ذلك التعدد يحوِج الساحل الإفريقي إلى تبني لغة مشتركة، قادرة على الاستفادة من المنجز الحضاري الغربي، والإنجليزية قد تكون ذلك الوسيط الملائم. ونحن لا نعتقد أن البرواني دعا إلى اعتماد الإنجليزية لغة للمنطقة، وإنما الأمر هو مقترح يتبناه الصحفي جمعة علي، كاتب المقال، مستغلاً تعلُّم البرواني للإنجليزية لتمرير خطابه. أما الابتعاد عن تعلُّم اللغات

---

(١٥) See, Scoot S. Reese. (2004). The Adventures of Abu Harith: Muslim Travel Writing and Navigating the Modern in Colonial East Africa. in Scoot S. Reese (ed) The Transmission of Learning in Islamic East Africa (Briil, Leiden. Boston: 2004). (Islam in Africa vol. 2). p. 255.

(١٦) المصدر السابق نفسه.

(١٧) مقالة تأبينية كتبت باللغة الإنجليزية، أمدّنا بها – مشكوراً – الفاضل نبهان البرواني.

الأجنبية خوفاً من المسّ بالقيم الجوهرية للمجتمعات المحلية، فيرى الصحفي: "إن ذلك (التمدُّن) ممكن تحقيقه دون أن يتخلى الواحد عن أي شيء له أي قيمة جوهرية بالنسبة له".

وقد ارتبط الشاعر بعلاقة جيدة – كما يبدو – مع شاعر عمان الأشهر أبي مسلم ناصر بن سالم بن عديم البهلاني (ت ١٩٢٠م). ففي إحدى المناسبات يكتب أبو الحارث أبياتاً في عيادة أبي مسلم، مهنئاً إياه بالشفاء من مرض أصابه. وإعجاب أبي مسلم بموهبة أبي الحارث الأدبية يظهر في تقريظه لهذه الرحلة التي نحن بصددها نثراً وشعراً. وكان أبو مسلم قد توقف عن قول الشعر – كما يُفهم من قصيدته – غير أنه عاد إلى نظمه لإعجابه برحلة أبي الحارث. يقول أبو الحارث:

"ولما اطلع على هذا السفر الشيخ الفاضل، والعالم الكامل، ناظم سلك البلاغة، وقائد زمام البراعة، الشاعر الشهير أبو مسلم ناصر بن سالم بن عُديِّم الرواحي أرسل لنا هذه الكلمة الدريَّة، وهي:

أيها الكاتب الفاضل،

إن رحلتكم حبة من فريد الجوهر، تناولتها الثريَّا لتجعلها ثامنة سبعتها، أو حبة في عنقودها، أو فصاً لخاتم كفها، أو واسطة لعقدها. فإن لم يكن ذا فرحلتكم قطعة من النور، دلَّت على مكان نبوغكم في الكتابة.

(أبو مسلم)

ثم أتبعها بقصيدة رنَّانة من نظمه ؛ مؤرخاً تمام الطبع، وهي:

تجوَّل في بساط الأرض شيئاً

لتنظر صنعة الملك البديع

فلم تك صخرة جبلت فقرَّت

فلست إلى المسير بمستطيع... "(١٨)

(١٨) والتقريظ، نثراً وشعراً، موجود في آخر هذه الرحلة.

ومن نافلة القول الإشارة هنا إلى أن هذه الرحلة طبعت بمطبعة النجاح؛ أي مطبعة صحيفة أبي مسلم الأولى "النجاح"، مما يشير إلى تبنِّي أبي مسلم لهذا العمل تبنياً تاماً. وفي موضع ثالث يكتب أبومسلم معاتباً إلى صديقه أبي الحارث؛ فقد زاره في داره ولم يجده ولم يجد الاحتفاء اللائق به، وشاهد في بيت صديقه ما أنكره من موسيقى ورقص ودخان يقوم بها بعض العمَّال. وينظم أبومسلم قصيدته في طابع قصصي يسرد فيه الأحداث(١٩).

توفي الشيخ محمد بن علي البرواني بمنزله في زنجبار، يوم الثلاثاء، الموافق ١٩٥٣/٧/٢١ م، عن عمر يناهز ٧٦ عاماً. وقد أقيم عزاؤه في اليوم التالي، وحضره عدد كبير من الناس من جميع الطوائف، ومن بينهم المعتمد العام وسكرتير السلطان الخاص وموظفون آخرون.

ترك الشيخ محمد البرواني عدة مؤلفات، هي:

١ – "مقامات أبي الحارث": ظهرت مطبوعة أول مرة بالقاهرة (١٩١٤م – دار الكتاب)، ثم طبعت ثانية في مسقط (١٩٨٠م – وزارة التراث القومي والثقافة).

٢ – "رحلة أبي الحارث": ظهرت مطبوعة أول مرة بزنجبار في مطبعة النجاح، وذلك عام ١٩١٥م. وهي طبعة تكثر فيها الأخطاء الإملائية والنحوية، وقد وردت إشارة إلى ذلك في نهاية الكتاب، تقول: "استلفات: قد وقعت بعض غلطات مطبعية نستلفت إليها الأنظار". وقد قمنا بتحقيق طبعة ثانية نشرتها وزارة التراث والثقافة، عام ٢٠١٠م.

٣ – "مجموعة قصائد": يشير النعي المنشور إلى أنه من المؤمل أن تصدر مختارات من قصائده سينشرها أبناؤه في السنة القادمة. ولم نطلع عليها، وربما أنها لم تنشر.

---

(١٩) حول بعض ملامح القص والرسالة الإصلاحية ينظر، محمد المحروقي، الشعر العماني الحديث أبو مسلم البهلاني رائدا ١٨٦٠–١٩٢٠م (المركز الثقافي العربي، بيروت: ٢٠٠٠م).

٥ – رحلة أبي الحارث والبحث عن "الأمة الواحدة":

إن ثقافة السفر والكتابة عنه كانت شبه رائجة في زنجبار إبَّان النصف الأول من القرن العشرين، وقد عملت على إذكائها جملة من الظروف السياسية والثقافية، من ظهور المطبعة، وانتشار الصحافة، وتطوُّر وسائل النقل، مما أشير إليه سابقاً. وضمن هذا السياق العام تأتي "رحلة أبي الحارث"، التي انطلقت من زنجبار صبيحة يوم الجمعة، ٢٠/ج١/١٣٣٢هـ، الموافق ١٧/إبريل/١٩١٤م، على الباخرة الألمانية المسمَّاة جتريدورمن. ولا يعلن الكاتب هدفاً محدداً للرحلة، وإن كنَّا نستشف أن الهدف العام هو الاطلاع على بلاد الإسلام، ورؤية مجد أمة الإسلام وأسباب قوتها، وأسباب ضعفها، ومظاهر تلك القوة وذلك الضعف. فهي، إذن، نوع من السياحة الفكرية لتعرُّف أحوال المسلمين. أما الجهة التي سافر إليها أبو الحارث فهي مصر، وبلاد الشام. والجدول التالي يقدم فكرة عن مسار رحلة أبي الحارث، زمنياً ومكانياً، بالإضافة إلى الوسائل التي استخدمها في تنقُّله والمدد التي مكثها:

الجدول (٢)
مسار رحلة أبي الحارث

المغادرة من	الوصول إلى	هجرية	ميلادية		
زنجبار	–	الجمعة، ٢٠/ج١/١٣٣٢هـ	١٧/٤/١٩١٤م[٢٠]	صباحاً	الباخرة جتريدورمن
–	تانجة	الجمعة، " "	" "	مساءً	"
تانجة	–	الأحد، ٢٢	١٩	صباحاً	

(٢٠) هذا هو التاريخ المعطى من قبل مؤلف الرحلة. وبمراجعة كتاب في توفيقات السنوات الهجرية والميلادية ظهر لنا أن المؤلف أخطأ في الشهر، وعدَّه إبريل، والصحيح أنه مارس. ينظر محمد مختار باشا. (١٩٨٠م). كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية. تحقيق وتكملة محمد عمارة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت). ج٢. ص ١٣٩٨.

تابع/ الجدول (٢)
مسار رحلة أبي الحارث

المغادرة من	الوصول إلى	هجرية	ميلادية		
–	ممباسا	الأحد، "	"	ظهراً	
ممباسا	–	الاثنين، ٢٣	٢٠	صباحاً	
–	عدن	السبت، ٢٨	٢٥	صباحاً	
عدن	–	الأحد، ٢٩	٢٦	"	
–	السويس	السبت			قارب
السويس	بورت سعيد				
بورت سعيد				صباحاً،٢	قطار
	القاهرة			عصراً، ٧	
القاهرة	–	٢٠/شع		صباحاً	قطار
–	بورت سعيد			مساءً	
بورت سعيد	–	٢١/شع		المغرب، ١١	باخرة نمساوية
–	بيروت	٢٢/شع		عصراً، ١٠	
بيروت	–	/٢٣		صباحاً، ١	قطار
–	دمشق	"		مساءً، ١١	
دمشق	–	٢٨/شع		صباحاً	قطار
–	بيروت	"		مساءً	
بيروت	–	٣٠/شع		مساءً	باخرة نمساوية
–	يافا	١		صباحاً	
يافا	–	١		عصراً، ٨	قطار
–	القدس	١		المغرب	
القدس	الخليل			قبيل الفجر	عربة الخيل
القدس	يافا				
يافا	بورت سعيد	اليوم التالي			
بورت سعيد	القاهرة	يوم الوصول نفسه			

تابع/ الجدول (٢)
مسار رحلة أبي الحارث

المغادرة من	الوصول إلى	هجرية	ميلادية
القاهرة	بورت سعيد	١٥/شو	
بورت سعيد	السويس	٣٠/شو	
–	جيبوتي	٥	صباحاً
جيبوتي		٥	مساءً
–	عدن	٦	صباحاً
عدن	–	٦	الغروب
–	ممباسا	٧	صباحاً
ممباسا	زنجبار	٨	صباحاً، ٣

يتضح لنا من الجدول السابق أن أبا الحارث قد غطّى منطقة واسعة في رحلاته، بداية من المحطات التي مرَّ بها في خط سيره إلى المكان المنشود وهو مصر. ومحطات الذهاب هي تانجة وممباسا وعدن؛ وهي مدن بحرية واقعة على المحيط الهندي. أما محطات الإياب فهي جيبوتي وعدن وممباسا. ولم يكن مكثه في هذه المحطات طويلاً، إلا ريثما تفرغ الباخرة ما أرادت تفريغه وتشحن ما أرادت شحنه. وأول نقطة وصل إليها في مصر هي بورسعيد، التي يسميها بورت سعيد، التسمية الإنجليزية لها (**Port Said**)؛ أي ميناء سعيد، ثم يصل إلى القاهرة. وفي مصر يزور الريف المصري، الذي أعجب به كثيراً، ووجد فيه ما افتقده في القاهرة من أخلاق العربي الأصيل. وهو أمر سنعود إليه لاحقاً. أما في بلاد الشام فقد زار بيروت ودمشق ويافا والقدس.

وقد استغرقت الرحلة ستة أشهر إلا خمسة أيام. وذلك أمر يذكره الكاتب في مختتم رحلته[٢١]. وهي مدة نُظر إليها – في أوانه – على أنها مدة قصيرة

(٢١) رحلة أبي الحارث. طبعة وزارة التراث والثقافة. ص ١٥٦. وسنحيل إلى هذه الطبعة لسلامتها من الأخطاء التي وقعت فيها طبعة زنجبار.

جداً، ولم تكن لتتم دون التقدُّم الكبير الذي تم في وسائل النقل البحري من السفن الشراعية؛ التي تجري بحسب ما تشتهي الرياح، إلى السفن البخارية؛ التي تجري بحسب ما يشتهي الملَّاح. والوسيلة الثانية البارزة التي استخدمها أبوالحارث وسهّلت تنقلاته هي القطار. والجدول (٣) التالي يوضح استخداماته لهاتين الوسيلتين، بحسب ما ذكر الكاتب في رحلته.

الجدول (٣)
استخدام الكاتب للسفينة البخارية والقطار(٢٢)

من	إلى	الوسيلة
زنجبار	بورت سعيد	باخرة نمساوية
بورت سعيد	القاهرة	قطار
القاهرة	بورت سعيد	قطار
بورت سعيد	بيروت	باخرة نمساوية
بيروت	دمشق	قطار
دمشق	بيروت	قطار
بيروت	يافا	باخرة نمساوية
يافا	القدس	قطار
القدس	يافا	(قطار)
يافا	بورت سعيد	(باخرة)
بورت سعيد	القاهرة	(قطار)
القاهرة	بورت سعيد	(قطار)
بورت سعيد	زنجبار	(باخرة)

نلاحظ أولاً أن الكاتب لا يذكر أحياناً وسيلة النقل التي استخدمها، وذلك في خط عودته من الشام إلى مصر، وكذلك في رحلته الأخيرة من بورت سعيد إلى

(٢٢) تنظر الخريطة التي توضّح مسار رحلة أبي الحارث البرواني. ملحق (٧). الشكر الجزيل للدكتور عبدالله الغافري الذي قام بإعداد هذه الخريطة.

زنجبار. وما أثبتناه في الجدول هو ما قدَّرناه اعتماداً على ما ذكره الكاتب في خط الذهاب، لذا وضعناه بين قوسين.

ونفهم من الجدول (٣) أن أبا الحارث يحرص على ذكر وسيلة تنقله لإبراز التقدُّم الذي وصل إليه العالم في مجال المواصلات. وهو يشير تصريحاً – غالباً –، وتضميناً – أحياناً – إلى أنه استخدمها في ثلاثة عشر موضعاً. استخدم الباخرة خمس مرات، والقطار ثماني مرات. وهو حريص على أن ينقل إلى قارئه سرعتهما وجمال تجربة استخدامهما. فيصف طريقه من بيروت إلى دمشق على النحو التالي:

"ولم يزل القطار يخترق بنا الجبال الشمّاء، وهو يتلوى ويتعرج في سيره يمنة ويساراً، ويصعد بنا تارة ويهبط أخرى، إلى أن جاوزنا لبنان. فانتهينا إلى سهل فسيح تنشرح برؤيته الصدور. وبعد قليل وصلنا محطة تُسمَّى رياق، والشمس قد بلغت كبد السماء فوقف بنا القطار هنيهة، ثم سار بنا في طريق تحف به من جانبيه الأشجار؛ من التفاح والمشمش والخوخ والرمان والتين، وقد مدت أغصانها على الطريق، واشتبكت. وعلى شمالنا نهر يسايرنا. واستمر الحال على هذا المنوال حتى بلغنا محطة دمشق، وكانت الساعة ١١، فنزلنا وتوجهنا إلى الفندق المُسمَّى بلوكندة القدس" (٢٣).

وبلاغة الكاتب لا تخيب أبداً في نقل جمال المشهد، مستعيناً بالصورة التي تجعل القارئ يتخيَّل المشهد في امتدادات غيرمتناهية. فقد قدّم – في أقل من سطرين – ثلاث صور متتابعة للقطار، فهو في سرعته كالسهم (يخترق)، وفي مرونة انعطافاته كالأفعى (يتلوَّى)، ثم الصورة الثالثة المبنية على وصف المشهد مباشرة (يصعد ويهبط)(٢٤).

(٢٣) رحلة أبي الحارث. ص ١٢٥.

(٢٤) يتسم أسلوب أبي الحارث الأدبي بالقوة والجمال. وهذه الرحلة هي خير شاهد على جمال أسلوبه، وتستحق أن تدرس من هذه الناحية بشكل مستقل.

أما عن وصفه للباخرة فتكثر الأمثلة، وترتفع لغة الوصف مقتربة من الشعر، ومن ذلك قوله:

١ – "ومرت تهوي هويَّ الأجدل المنقضِّ".

٢ – "وغادرتنا وراءها كأنها تبادر بسيرها نهباً مقسماً".

٣ – "وأصبحنا في ذلك اليوم والبحر قد هاج هائجه، وماج مائجه، فأصبحت السفينة ألعوبة الأمواج".

والأمثلة نقلت بالصورة سرعة الباخرة (٢) واضطرابها (٣)، والسرعة مع الاضطراب (١). والجامع هنا في هذه الصور الثلاث هو التركيز على مخاطر السفر والبحر؛ مخاطر هي جزء من متعة السفر، وجمال المغامرة.

يصل أبو الحارث إلى السويس أولاً في مصر. ويصف ميناءها، ويتوقف أمام تاريخها القديم، جامعاً بين الماضي والحاضر، وهو منهجه الذي سيسير عليه في هذه الرحلة، وكأنما ذلك هو النموذج الذي يريد أن يبرزه لقارئه في زنجبار عن الوجه الذي ينبغي أن يتبناه الفرد في زنجبار؛ أي ألا يرفض المنجزات الغربية جميعها ولا ينقطع عن ماضيه أو تراثه. يقول واصفاً السويس بما يبرز أن السويس مدينة عصرية:

"هي مدينة عظيمة، واقعة على البحر الأحمر في مدخل القنال بالقرب من أطلال مدينة قديمة تُسمَّى بالقلزم؛ التي كانت فرضة مصر.... ويوجد بالسويس حوض عظيم لإصلاح السفن، وأرصفة ترسو عليها السفن الكبيرة لشحن البضائع. ومدينة السويس تبعد عن المرسى بنحو الساعة، ويمتد بينهما خط حديدي... وتصلها بالقاهرة والإسكندرية سكة حديدية. وهي الآن ذات أهمية عظيمة لوقوعها على رأس الخليج وطرف القنال"[٢٥].

فالكاتب يقدِّم لقارئه المتخيَّل معلومات عن السويس، ومدى عصريَّتها ؛

(٢٥) رحلة أبي الحارث. ص ٦٤.

ذاكراً الميناء وحوض إصلاح السفن وسكك الحديد التي تربط الميناء بالمدينة، والمدينة بالقاهرة والإسكندرية.

وهو – كما أسلفنا – لا ينسى أن يهتم بتاريخ المدينة، فيقول:

"وإلى هذه المدينة ينسب هذا البحر (أي بحر القلزم)، وهو المكان الذي غرق فيه فرعون وجنوده. ... وبالقرب منها في آسيا يوجد وادي التيه؛ الذي تاه فيه بنو إسرائيل حين خرج بهم موسى – عليه السلام – من مصر. وبالقرب من هذا الوادي توجد العيون المشهورة، وهي عيون موسى..." (٢٦)

وهكذا يرتد الكاتب إلى التاريخ القديم منذ الفراعنة، مشيراً إلى قصة فرعون المذكورة في القرآن.

وفي القاهرة، التي يصفها بأنها "أعظم مدينة في الديار المصرية والقارة الإفريقية" (٢٧)، نجد أن الكاتب يقف متروياً عند ماضيها وحاضرها. وعند المُعجِب وغير المُعجِب فيها؛ مما يكشف لنا ميوله وشخصيته الناقدة. لأجل ذلك الاحتفاء بالماضي يذكر الكاتب سنة تأسيس القاهرة، واسم مؤسسها، وما كانت عليه قبل أن تبنى كمدينة. فيذكر أنها:

"أسست ... سنة ٣٥٩ هجرية/(٩٦٩م)، بأمر من المعز لدين الله بن إسماعيل بن المنصور على يد كاتبه ووزيره القائد جوهر الصقلي. حيث قدم من المغرب للاستيلاء على بلاد مصر من طرف مولاه المعز. وكان الموضع الذي بنيت فيه هذه المدينة رملة يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط إلى عين الشمس. ولم يكن بها بناء سوى بستان للإخشيد ودير للنصارى" (٢٨).

وفي هذا الإطار نفسه يذكر مكتباتها القديمة التي تقع في باب الخلق،

(٢٦) رحلة أبي الحارث. ص ص ٦٣ - ٦٤.
(٢٧) رحلة أبي الحارث. ص ٧٠.
(٢٨) نفسه.

ومتاحفها كدار الآثار العربية الذي يضم الآثار الإسلامية ومتحف آثار الفراعنة المسمَّى "أنتيكا خانة"، وهو يستطرد في وصف الآثار التي يراها. ولا يفوته التوقف عند الجوامع، واصفاً ومعرِّفاً، كجامع محمد علي باشا، وجامع الرفاعي، وجامع ابن طولون. كما يذكر المزارات والموالد، مثل مشهد الإمام الحسين، ومشهد السيدة زينب، ومشهد السيدة نفيسة، وغير ذلك من المشاهد. وفي زيارته لضواحي القاهرة يزور الفسطاط، التي تأسست قبل القاهرة، وإليها انتقل كرسيّ الملك من الإسكندرية، في أثناء الفتح الإسلامي. يقول الكاتب:

> "فمن ضواحيها (أي القاهرة) مصر القديمة، التي كانت تُسمّى قديماً بالفسطاط، وكانت عاصمة الديار المصرية قبل تأسيس القاهرة. أحدثها عمرو بن العاص عند فتحه مصر، وصارت دار الإسلام، وانتقل كرسي المملكة من مدينة الإسكندرية بعد ما كانت منزل الملك زيادة على تسعمائة سنة. وصارت من حينئذ الفسطاط دار الإمارة نزل بها أمراء مصر"(٢٩).

وأبو الحارث يطرب إلى التاريخ الإسلامي وتعرُّفه، وتعريف قارئه المتخيَّل به، نظراً إلى شخصيته المحافظة إلى حد ما. وهو يذكر ازدهار الفسطاط، حتى إن عمارتها أربت على "عامة مدن المعمورة"؛ إذ كان بها ستة وثلاثون ألف مسجد، وثمانية آلاف شارع، وألف وسبعون حماماً(٣٠). ويبدو لنا أن هذه الأرقام، التي نعتقد أنه نقلها من بعض المصادر القديمة، بها بعض التفخيم، وبخاصة عدد المساجد. فإذا كان ذلك عدد المساجد فكم سيكون عدد البيوت؟! خاصة أن الكاتب يتحدث عن القرن الرابع الهجري بعد أن تأسست القاهرة، وانتقل مركز الحكم إليها، وبقيت الفسطاط للرعية فقط!. نعم، إن الوجه الذي ينبغي أن يفهم الأمر عليه هو أن أبا الحارث كان ينظر إلى ذلك الماضي

(٢٩) رحلة أبي الحارث. ص ١٠١.
(٣٠) رحلة أبي الحارث. ص ص ١٠١ – ١٠٢.

الإسلامي بعين الرضا؛ بل الفخر، فسهت باصرته النقدية الحادة وأورد الخبر بما فيه من مبالغة. إن موقفه المحتفي بالماضي – خاصة الإسلامي – لا يتطابق مع مجمل تجربته الاجتماعية حينما خالط الناس. وقبل أن نذكر بعدي تلك التجربة نورد الجدول التالي الذي يجمل انطباعاته الإيجابية والسلبية حول الحياة في القاهرة ؛ طبيعة وبشراً:

الجدول (٤)
ما أحب، وما لم يحب في القاهرة

م	الأمور المستحبة	الأمور غير المستحبة
١	خدمة المطاعم	الهواء
٢	البائعات الإفرنجيات في الدكاكين	القهوة المصرية
٣	المتنزهات	عادات النساء في المآتم
٤	رصيف جسر قصر النيل	تلحين القرآن
٥	قراءة القرآن قبل صلاة الجمعة	تقديس جامع المتولي
٦	قصور مصر الجديدة	عدم عناية الأزهريين بنظافة الأزهر
٧	كرم عرب الريف	ما يحدث في الموالد: سرقة/ دهس / قتل
٨		استخدام كلمة "معلهش" في غير سياقها
٩		استخدام كلمة "شيء لطيف" في غير سياقها
١٠		أهل الطرق الصوفية وضربهم بالطبول
١١		المتمدنون في مصر واهتمامهم بالشكليات
١٢		كثرة الذباب والبق في الريف صيفاً
١٣		سكنى القبور في الأعياد

يبرز الجدول السابق أن الأمور التي لم يحبها الكاتب في القاهرة أكثر، بمقدار الضعف تقريباً، من الأمور التي أحبها. إن الأشياء التي أحبها تتمحور حول الحياة العصرية وهي (١، ٢، ٣، ٤، ٦)، وأمر يتصل بممارسة دينية (٥)، وأخير يتصل بطبيعة عرب الريف (٧). وهذا الأخير سيتضح لاحقاً، بشكل أكبر، بمقارنته بعنصر مقابل متصل بطبيعة المتمدنين من أهل القاهرة، والضيافة أو

الخدمة في المطاعم، على سبيل المثال، مما صوَّره الكاتب، مبرزاً ارتياحه إليه. يقول أبو الحارث:

"فإذا دخلت مطعماً فأول ما تجلس يأتيك الخادم بأدوات الأكل؛ من فوطة وملعقة وسكين، وغير ذلك. ثم بدفتر مكتوب فيه أسماء الطعام باللغتين العربية والفرنساوية، فتختار ما تشاء. فإذا فرغت من الأكل أتاك الخادم، وأنقدته قيمة ما أكلت. وأول ما يُبتدأ في غذائهم الشوربة، ويختم بشيء من الحلو أو الفاكهة"(٣١).

والكاتب يفصِّل في ذكر الخدمة المقدمة في المطاعم ورقيّها المتمثل بوجود "إتيكيت" خاص في تجهيز المائدة؛ حيث تُقدَّم أدوات الأكل أولاً، متبوعة بقائمة الطعام – وباللغتين الفرنسية والعربية – وطريقة الدفع التي تكون بعد الفراغ من الطعام. كذلك يذكر أن "الإتيكيت" يقضي بأن تُقدَّم الشوربة وتجعل الفاكهة والحلويات في الخاتمة. إن القاهرة في عشرينيات القرن المنصرم شهدت مدنية وانفتاحاً كبيراً على الغرب. وقد كان الخديوي إسماعيل يحلم بأن تكون القاهرة هي باريس الشرق في المدنية والتطور.

وإذا كانت مدنيَّة القاهرة قد أعجبته في بعض مظاهرها؛ فإنه لا يخفي عدم ارتياحه لما سببته هذه المدنية المستغربة من ابتعاد المصريين، والمتمدنين منهم ؛ أي أهل القاهرة، عن قيم الأصالة، وما أكسبتهم إياه المدنية الغربية من بعد عن روح الدين الإسلامي، إلا ما ندر. وإن نظرنا إلى الجدول السابق رأينا أن الأمور التي لا يستحسنها تقع في دائرة البعد عن مقتضيات الدين بسبب الفهم الخطأ له أو بسبب المدنية. وتدخل هنا النقاط المذكورة في (٤، ٥، ٦، ٧، ١٠، ١١، ١٤). والدائرة الثانية يمكن أن تُسمّى بفساد الذوق، وهي تضم النقاط المذكورة في (٢، ٩، ٨، ١٣). والدائرة الأخيرة تتصل بطبيعة الأرض كالهواء (١)، وكثرة الذباب في الريف صيفاً (١٢). وفي إطار ذم الكاتب لما يسميه

(٣١) رحلة أبي الحارث. ص ص ٧٢ – ٧٣.

بـ "المدنية المزعومة"، يمتدح الريف وأهله المحافظين على القيم الأصيلة، وهم الممثلون للإسلام حق التمثيل، إلى جانب العلماء، فيقول:

"فأهل الريف أهل الكرم واللطف والدعة ولين الجانب والاحتفاء بالغريب. فهم رجال الدين بعد العلماء والنجباء، بخلاف المتمدنين في مصر الذين ينسبون أنفسهم إلى المدنية الغربية، ولم يأخذوا منها إلا قشورها المقشرة. فهمُّ أحدهم أن ينافس أخاه بحسن رياشه وبزته، وبياض هندامه وياقته، فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنَّع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء. يزدرون الغريب ويستصغرونه ولا يألفونه. فالغريب فيهم عادم الرفيق، ليس له منهم معين ولا شفيق" (٣٢).

فهم لم يعرفوا من المدنية إلا القشور. وهم أبعد ما يكونون عن روح الإسلام وتواضع أصحابه الحقيقي، واحترامهم لحقوق الضيف.

ويبدو أن عدم ارتياح الكاتب لابتعاد المصريين عن الماضي وقيم الماضي المضيئة لم يكن محصوراً في العاصمة الكبرى الصعبة القاهرة فقط بل تعداها إلى غيرها من المدن المتأثرة بالمدنية الغربية. ففي بورت سعيد – الميناء البحري المهم – يشير إلى طبيعة المخادعة التي جُبِل عليها – كما يزعم – أهل بورت سعيد، يقول:

"فلما نزلت فيها (بورت سعيد) قيَّض القدر المحتوم بأن قادني أحد من أولئك المحتالين في بورت سعيد إلى فندق يُسمَّى إمبريال. فإن صاحب هذا الفندق أحيل خلق الله في ابتزاز واستلاب ما عند المسافر. لا يردعه رادع الحياء. يقاضيك أضعافاً مضاعفة عمَّا اتفقتم عليه من الأجرة. ولا يرى في ذلك من بأس، معتقداً أن الظلم

(٣٢) رحلة أبي الحارث. ص ١١١.

من شيم النفوس. فتباً له من خادع. وأهل بورت سعيد إذا عاملتهم وجدتهم كصاحب الفندق إلا البعض منهم، وقليلٌ ما هم"[٣٣].

وانزعاج الكاتب من بعض التجارب السلبية التي مرَّ في القاهرة وبورت سعيد يحمل – في بعض الأمور – إلى طبيعة العواصم والمدن الكبرى الممتلئة بالناس، وما يستتبع ذلك من صعوبات في الحياة، تصل إلى حد الصراع من أجل الحياة. وكذلك فإن وعي الناس الناقص بالمدنية، وقسرها على الجانب المادي، سبب آخر للسلوكيات غير الأصيلة التي أطنب الكاتب – كما قد أوضحنا – في بعض جوانبها.

إن موقفه السلبي من تجربته في مصر يظهر أكثر بمقارنته بتجربته الإيجابية في بلاد الشام، كما يرجى أن يتضح بعد قليل، وكانت مدة إقامته في مصر هي شهران ونصف الشهر.

والجزء الثاني من رحلة أبي الحارث هي بلاد الشام، التي لا يمكث فيها سوى مدة يسيرة، يزور فيها المدن الرئيسة، وهي بيروت ودمشق وبيت المقدس ويافا. والهدف من الرحلة هنا – أي في القسم المتصل بالشام – ينص الكاتب عليه نصاً حين يقول:

"و بعد إقامتي شهرين ونصفاً (بمصر) أجمعت أن أسافر إلى الشام ؛ قصداً لترويح النفس، ولزيارة الأماكن المقدَّسة في القدس الشريف ؛ طلباً من الله عظيم الأجر، وجزيل الثواب. قال – عليه الصلاة والسلام –: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ؛ مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس. وإن الصلاة فيه خير من ألف صلاة في غيره ". فاستخرت الله في ذلك، فأخذت أهبتي، وركبت القطار متوجهاً إلى بورت سعيد، وذلك في صبيحة ٢٠ من شعبان"[٣٤].

(٣٣) رحلة أبي الحارث. ص ١١٩.

(٣٤) رحلة أبي الحارث. ص ١١٨.

فالهدف الأول ترويحي، وأما الثاني فهو هدف ديني، لنيل الثواب بزيارة المسجد الأقصى، والصلاة فيه، طمعاً في نيل الأجر المذكور في الحديث الشريف الذي استشهد الكاتب به. وهذا الاستحضار الديني قد يكون قميناً بأن يدخل السكينة والاطمئنان إلى نفسه ابتداء.

ونلمس إيجابية في موقفه من السكان والمكان في بلاد الشام. فأهل دمشق عنده هم:

> ".. أهل اللطف والدعة والكرم. فهم على طريقة حسنة، فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طلق، وكلمة لينة. ومن مآثرهم صون نسائهم والتزامهن البيوت ليلاً، فلا تظهر بالليل في زقاق من الأزقة قطعاً" (٣٥).

فالأخلاق العربية الأصيلة حاضرة هنا، ومتمثلة في إكرام الضيف وصون النساء، فلا يخرجن ليلاً البتة. وذلك بعكس الجفاء الذي وجده في القاهرة من قبل "مدعي التمدُّن"، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

أما استحسانه للمكان، فنستطيع أن نقدم ما قاله عن بيروت مثالاً لذلك. يقول:

> ".. هي مدينة قديمة جميلة المنظر، ... و.. ميناء تجاري مهم جداً على شاطئ الأبيض. مشهورة باعتدال هوائها، وكثرة خيراتها" (٣٦).

وسبق أن رأينا هواء القاهرة لم يعجب الكاتب، أما هواء بيروت فقد استحسنه.

واهتمام الكاتب بالماضي واضح بيّن هنا، خاصة عندما يتصل الأمر بعاصمة الأمويين؛ دمشق، فإنه يطنب ويسهب في ذكر تاريخها ومحاسنها.

---

(٣٥) رحلة أبي الحارث. ص ١٣٨.

(٣٦) رحلة أبي الحارث. ص ١٢١.

ويذكر أنها أقدم مدن العالم، وأن المسلمين فتحوها في سنة ١٤ هجرية. وفي سنة ٤١ هجرية بايع الناس بالخلافة معاوية بن أبي سفيان، واتخذ دمشق عاصمة لملكه. وما زالت تتناقلها الأيدي الغالبة حتى استولى عليها السلطان سليم العثماني سنة ١٥١٦ ميلادية. وحينما زارها الكاتب سنة ١٩١٤م، كانت دمشق بقبضة العثمانيين(٣٧). ثم يستطرد إلى ذكر مكانتها بين مدن العالم، وما قاله الشعراء في وصفها.

ومن أجمل ما قيل – نثراً – مصوغاً بلغة شعرية عالية؛ ما قاله الجغرافي ابن جبير في ذكر طبيعتها ووصف جمالها. يقول ابن جبير، فيما ينقله أبو الحارث:

> "أما دمشق فهي جنة المشرق، وخاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي جليناها. قد تحلت بأزهار الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين، ظل ظليل وماء سلسبيل، تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ورياض، وقد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. وقد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، والأكمام بالثغر، وامتدت بشرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر"(٣٨).

ونقل الكاتب لهذا الشاهد يعكس اتفاقه معه حول طبيعة دمشق الجميلة والمزدانة بالماء والخضرة؛ مما يشكل تميُّزاً لدمشق على حساب القاهرة، التي لم تناسبه طبيعتها.

ويصل أبو الحارث إلى مقصده الأسمى في هذه الرحلة؛ بيت المقدس،

---

(٣٧) رحلة أبي الحارث. ص ١٢٧.

(٣٨) رحلة أبي الحارث. ص ص ١٢٧ – ١٢٨.

فيذكر طرفاً من تاريخه، متوقفاً عند الحرم الشريف، واصفاً إياه بتفصيل، ننقل بعضه هنا:

"وفي القدس آثار كثيرة، وأشهر الآثار الحرم الشريف. وبعد وصولي الفندق خرجت قاصداً إلى الحرم الشريف، ولمَّا انتهيت إليه دخلت من أحد أبوابه، فانتهيت إلى مساحة عظيمة، وهي ساحة الحرم. وطول الحرم سبعمائة واثنان وخمسون ذراعاً، وعرضه أربعمائة وخمسة وثلاثون ذراعاً. يحدُّه من الشرق سور المدينة، ووراءه وادي قدرون، ومن الجنوب سورها أيضاً. ومن الشمال والغرب أبنية المدينة. وكلُّه مكشوف الفضاء سوى المسجد الأقصى فإنه مسقوف بصفة فائقة، وأصبغة رائقة، وموقعه في الجانب الشرقي من الحرم. أساسه من عمل داود، عليه السلام" (٣٩).

فهو يذكر أبوابه ومساحته وحدوده الخارجية. ولا يتوقف عند ذلك بل يتعداه إلى ذكر قبَّة الصخرة، وقبة المعراج، والمحراب الذي صلَّى فيه سيدنا عمر بن الخطاب بعد الفتح. وبعد أن ينقل صورة تفصيلية لقارئه المتعطش، يختم الوصف قائلاً:

"وقضيت في زيارة الجامع ومشاهدة بديع صنعته ساعات، وقد حضرت صلاة التراويح فيه، فالحمد لله على ذلك، ونسأل الله سبحانه وتعالى القبول" (٤٠).

ليشير إلى تحقق هدفه الديني المتمثل في زيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه، طمعاً في نيل الثواب.

هكذا نرى أن أبا الحارث في رحلته إلى "بلاد الإسلام"، وقلبه النابض

(٣٩) رحلة أبي الحارث. ص ص ١٤١ – ١٤٢.
(٤٠) رحلة أبي الحارث. ص ١٤٥.

آنذاك؛ مصر والشام كان مستفيداً من التطوُّر الثقافي الذي حدث في زنجبار، ومن انفتاحها على العالم عبر الصحافة، استهلاكاً وإنتاجاً. وحاول أن ينقل إلى قارئه المتعطش حال المسلمين في لحظته، متوقفاً عند التاريخ؛ كمصدر لاستلهام المجد والقوة.

وهو في الآن ذاته لمس، بشكل غير مباشر – غالباً – سؤالاً من أهم أسئلة النهضة العربية، المتصل بالموقف من الغرب. ورأينا أن شخصيته اتسمت بالمرونة والانفتاح على الآخر، مما انعكس على موقفه من الغرب؛ ذلك الموقف الذي يقضي بالاستفادة من منجزات الغرب، دون التخلِّي عن القيم الإسلامية، ودون الابتعاد عن روح الإسلام.

المصادر والمراجع

أولاً – الوثائق:

- رسالة جرجي زيدان إلى سلطان زنجبار. (٣٠ أكتوبر ١٨٩٩م). (ZA-5-25).
- رسالة محمد رشيد رضا إلى سلطان زنجبار. (٢٠ جمادى الآخرة ١٣١٩هـ/ (٥/١٠/١٩٠١م). (ZA-AA5-23).
- رسالة محمد رشيد رضا إلى سلطان زنجبار. (١١ شوال ١٣٢٨هـ/ (١٦/١٠/١٩١٠م)). (ZA-AQ1-3).
- رسالة سالم بن محمد الرواحي إلى ناصر بن سالم. د ت. (ZA-AA5-23-2).
- قائمة بالصحف التي كانت تصل السلطان حمود بن محمد. دت. (ZA-AA5-2).

ثانياً – الكتب العربية:

- السعدي، جُميِّل بن سعيد بن لافي بن خلفان بن خميس. (١٢٩٧). كتاب قاموس الشريعة. ج١. المطبعة السلطانية: زنجبار.
- المرجبي، حمد بن محمد بن جمعة. (٢٠٠٦). مغامر عماني في أدغال إفريقيا، حياة حمد بن محمد بن جمعة المرجبي (١٨٤٠ – ١٩٠٥) المعروف بتيبو تيب". ت محمد المحروقي. منشورات الجمل. كولونيا ووزارة التراث والثقافة: مسقط. ٢٠٠٦.
- البوسعيدي، حمود بن أحمد بن سيف. (٢٠٠٦). الدرُّ المنظوم في ذكر محاسن الأمصار والرسوم، مراجعة وتقديم محمد المحروقي. وزارة التراث والثقافة: مسقط. ط١.
- باشا، محمد مختار. (١٩٨٠). كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة

التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية. تحقيق وتكملة: محمد عمارة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت. ج ١و ٢.

- البرواني، محمد بن علي بن خميس. (١٩١٥). رحلة أبي الحارث. مطبعة النجاح: زنجبار.
- المحروقي، محمد. (٢٠٠٠). الشعر العماني الحديث؛ أبو مسلم البهلاني رائداً ١٨٦٠– ١٩٢٠. المركز الثقافي العربي: بيروت.
- الرواحي، أبو مسلم ناصر بن سالم. (١٩٨٦). ديوان أبي مسلم، ت عبد الرحمن الخزندار. دار المختار: دمشق.
- المغيري، سعيد بن علي بن جمعة. (١٩٧٩). جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار. وزارة التراث القومي. ط١.
- سعيد، زاهر. (د ت). تنزيه الأبصار والأفكار في رحلة سلطان زنجبار، رتَّبه لويس صابونجي، راجعه: د. إبراهيم عبده. وزارة التراث القومي والثقافة: مسقط. ط١.

ثالثاً – الكتب الإنجليزية:

- Abdul Sharief. (1995). Mosques, Merchants and Landowners in Zanzibar, in Abdul Sharief (ed) The History and Conservation of Zanzibar Stone town (Eastern African Studies) (London).
- Mariam M. A. Mahmadani, The Mass Media in Zanzibar. (1892-1974). in International Conference on the History and Culture of Zanzibar, Zanzibar December 14-16, 1992.
- M.H. Custers. (2006). Ibadhi Publishing Activities in the East and West c. 1880 - 1960s (Maastricht- The Netherlands)
- Scoot S. Reese. (2004). The Adventures of Abu Harith: Muslim Travel Writing and Navigating the Modern in Colonial East Africa, in Scoot S. Reese (ed) The Transmission of Learning in Islamic East Africa (Briil, Leiden. Boston: 2004), (Islam in Africa vol. 2). /

رابعاً – الدوريات:

- الشماخي، مصطفى بن سعيد. "نبراس المشارقة والمغاربة". دار

الوثائق القومية بالقاهرة. (حارة الليمون، نمرة (٩) أول شارع السروجية). صدر العدد الأول منها في ٣٠ يوليو سنة ١٩٠٤. (رقم عمومي ٤٢٥٧٠).
- اللمكي، ناصر بن سليمان، المرجبي، حميد بن محمد. فاتح الكونغو. (مجلة الهلال، يوليو ١٩٠٦). ص ص ٥٧١ – ٥٨٠.

ملحق (١)

قائمة بالصحف التي كانت تصل السلطان حمود بن محمد، د ت،

(ZA-AA5-2)

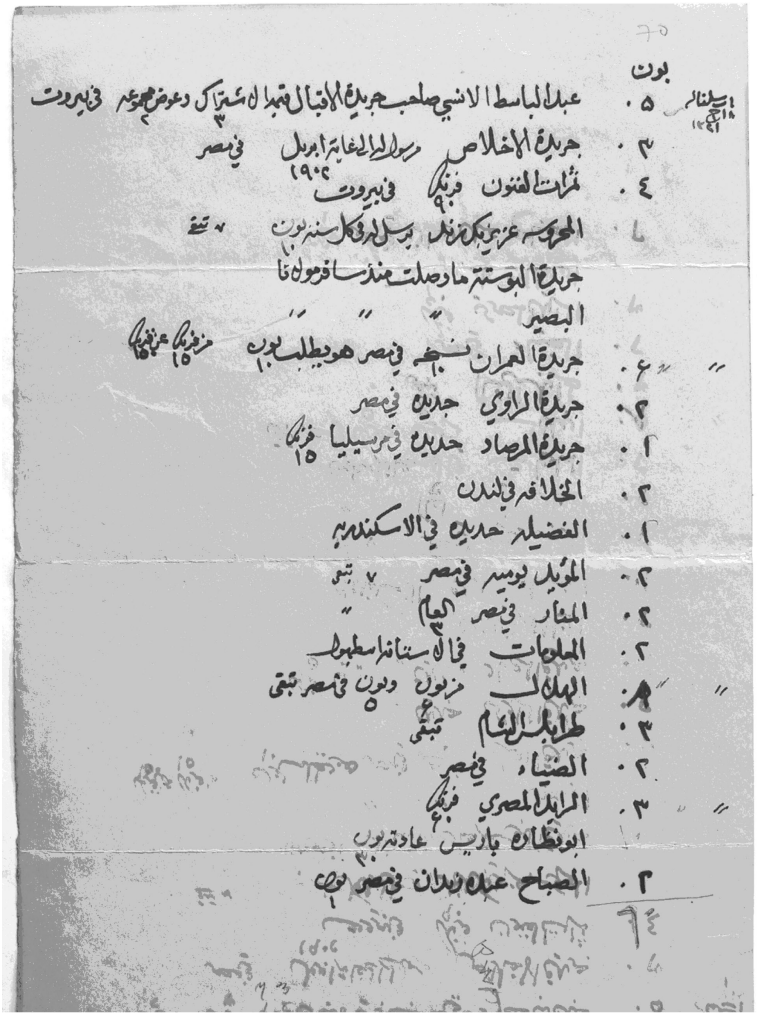

بون

٥. عبد الباسط الانشي صاحب جريدة الاقبال قبل ان يشتراك وعوض مجموعه في بيروت

٤. جريدة الاخلاص رسول الى الغاية ابريل ١٩٠٢ في مصر

٤. ثمرات الفنون فرنك في بيروت

المحروسه عزيزيه مرسل لمن كل سنه بون ٧ تنقح

جريدة البوستة ما وصلت منذ سافر مولانا

البصير " "

٦. جريدة العمران نجفه في مصر هو يطلب بون ١٥ فرنك عن فرنك

٣. جريدة الراوي جديد في مصر

١. جريدة المرصاد جديد في مرسيليا ١٥ فرنك

٣. الخلافه في لندن

١. الفضيله جديد في الاسكندريه

٣. المؤيد يومية في مصر ٧ بتو

٣. المنار في مصر كل

٣. المعلومات في الاستانه اسطمبول

٨. الهلال مزبون وبون في مصر بتي

٣. طرابلس الشام تبقى

٣. الضياء في مصر

٣. الرائد المصري فرنك

ابو نظاره باريس عادته بون

٣. المصباح عبد رحمان في مصر بون

ملحق (٢)

رسالة من سالم بن محمد الرواحي إلى ناصر بن سالم، د ت،

(ZA-AA5-23-2)

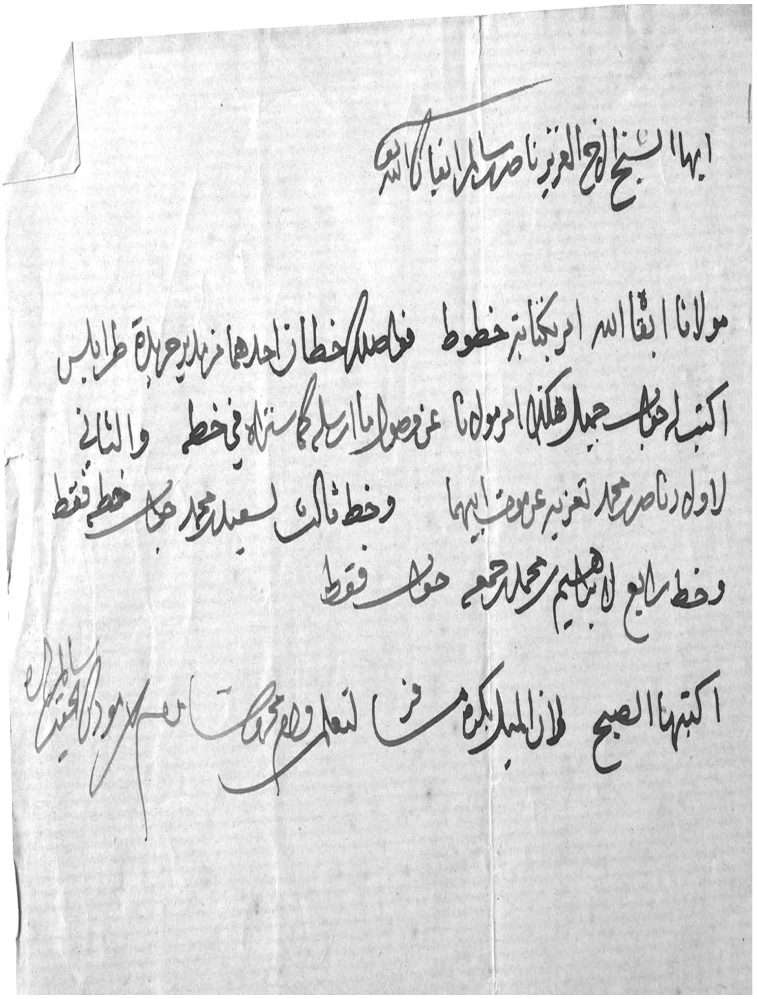

ملحق (٣)

رسالة من محمد رشيد رضا إلى سلطان زنجبار، ٢٠ جمادى الثانية ١٣١٩هـ/ (٥/ ١٠/ ١٩٠١م)

(ZA-AA5-23-2)

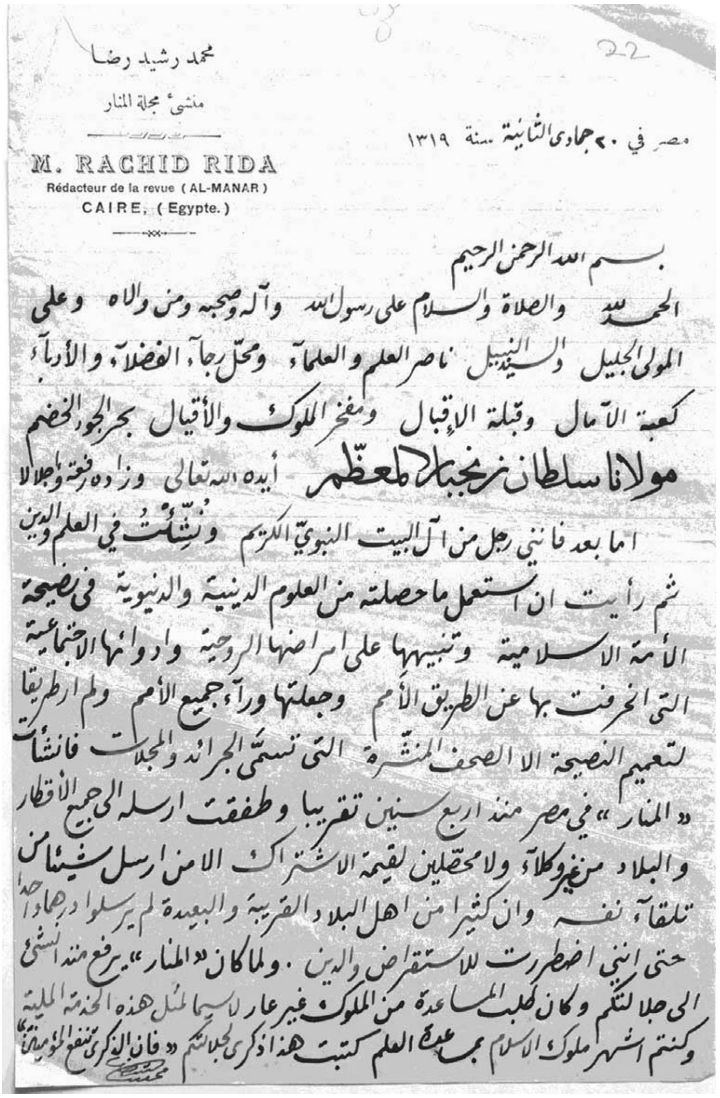

محمد رشيد رضا
منشئ مجلة المنار

M. RACHID RIDA
Rédacteur de la revue (AL-MANAR)
CAIRE, (Egypte.)

22

مصر في ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٣١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وعلى المولى الجليل والسيد النبيل ناصر العلم والعلماء ومحل رجاء الفضلاء والأدباء كعبة الآمال وقبلة الإقبال ومفخر الملوك والأقيال بحر الجود الخضم

مولانا سلطان زنجبار المعظم أيده الله تعالى وزاده رفعة وإجلالا

أما بعد فانني رجل من آل البيت النبوي الكريم ونشأت في العلم والدين ثم رأيت ان استعمل ما حصلته من العلوم الدينية والدنيوية في نصيحة الأمة الاسلامية وتنبيهها على امراضها الروحية وادوائها الاجتماعية التي انحرفت بها عن الطريق الأمم وجعلتها وراء جميع الأمم ولم ار طريقا لتعميم النصيحة الا الصحف المنشرة التي تسمى الجرائد والمجلات فانشأت «المنار» في مصر منذ اربع سنين تقريبا وطفقت ارسله الى جميع الأقطار والبلاد من غير وكلاء ولا محصلين لقيمة الاشتراك الا من ارسل شيئا من تلقاء نفسه وان كثيرا من اهل البلاد القريبة والبعيدة لم يرسلوا درهما واحدا حتى انني اضطررت للاستقراض والدين . ولما كان «المنار» يرفع منذ انشئ الى جلالتكم وكان لكلمة المساعدة من الملوك غير عار لاسيما مثل هذه الخدمة الملية وكنتم اشهر ملوك الاسلام بحب العلم كتبت هذا اذكرى لجلالتكم «فان الذكرى تنفع المؤمنين»

ملحق (٤)

رسالة من محمد رشيد رضا إلى سلطان زنجبار، ١١ شوال ١٣٢٨هـ/ (١٦/ ١٠/ ١٩١٠م)،

(ZA-AQ-3)

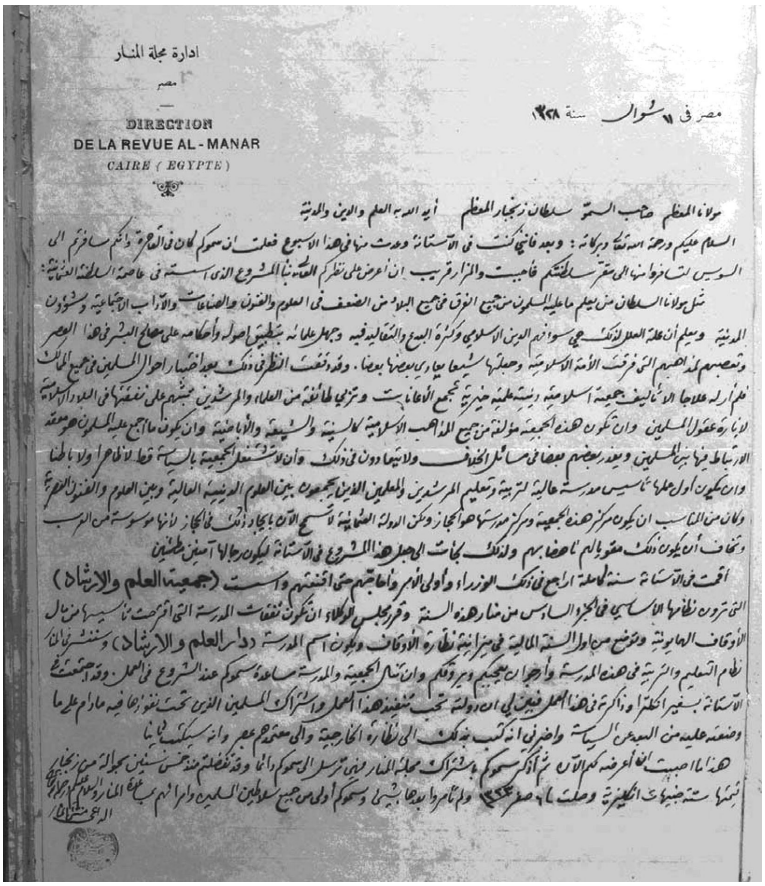

ادارة مجلة المنار
مصر

DIRECTION
DE LA REVUE AL-MANAR
CAIRE (EGYPTE)

مصر في ١١ شوال سنة ١٣٢٨

مولانا المعظم صاحب السمو سلطان زنجبار المعظم أيده الله بالعلم والدين والدولة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: وبعد فانني كنت في الآستانة ومدت مني في هذا الاسبوع فعلمت ان سموكم كنتم في القاهرة وانكم سافرتم الى السويس لتستقلوا باخرة الى مقر سلطنتكم فاحببت والزائر قريب ان أعرض على نظركم العالي المشروع الذي استقر في عاصمة السلطنة العثمانية:

مثل مولانا السلطان من يعلم ما عليه المسلمون من جميع الفرق في جميع البلاد من الضعف في العلوم والفنون والصناعات والآداب الاجتماعية والشؤون المدنية ويعلم أن علة العلل لذلك هي سوء فهم الدين الاسلامي وكثرة البدع والتقاليد فيه وجهل علمائه بتطبيق اصوله واحكامه على مصالح البشر في هذا العصر وتصميم لهم الصبر التي فرقت الأمة الاسلامية وجعلتها شيعا يعادي بعضها بعضا. وقد وقفت النظر في ذلك بعد اختبار احوال المسلمين في جميع الممالك فلم أر له علاجا الا تأليف جمعية اسلامية دينية علمية خيرية تجمع الأعاظم وتزنهم طائفة من العلماء والمرشدين تجتمع على نفقتها في البلاد الاسلامية لارشاد عقول المسلمين وان تكون هذه الجمعية مؤلفة من جميع المذاهب الاسلامية كالسنية والشيعية والاباضية وان يكون ما اجمع عليه المسلمون هو معتمد الارتباط فيما بين المسلمين ويعذر بعضهم بعضا في مسائل الخلاف ولا يتعادون في ذلك وان لا تشتغل الجمعية بالسياسة قط لا ظاهرا ولا باطنا وان يكون اول عملها تأسيس مدرسة عالية لتربية وتعليم المرشدين والمعلمين الذين يجمعون بين العلوم الدينية العالية وبين العلوم والفنون العصرية ويكون من المناسب ان يكون مركز هذه الجمعية ومركز مدرستها هو الحجاز ولكن الدولة العثمانية لا تسمح الآن بايجاد ذلك في الحجاز لانها مؤسوسة من العرب وتخاف أن يكون ذلك مقويا لهم ناهضا بهم ولذلك بجانب المشروع في الآستانة ليكون رجالا آمنين مطمئنين

اتفق في الآستانة سنة كاملة الراجح في ذلك الوزراء وأولي الأمر وأعاظم حتى اقتنعوا واستحسنوا (جمعية العلم والارشاد) التي ترون نظامها الاساسي في الجزء السادس من منار هذه السنة وقرر مجلس الوكلاء ان تكون نفقات المدرسة التي ائتمرت تأسيسها من مال الأوقاف العامرة وتوضع من اول السنة المالية في ميزانية نظارة الأوقاف وتكون اسم المدرسة (دار العلم والارشاد) وتنشر فيها نظام التعليم والتربية في هذه المدرسة وأجراء تعميمه وبرقيم وان مال الجمعية والمدرسة ساعة سموكم عند الشروع في العمل وقد اجتمعت في الآستانة بغير الكثرة وذاكرتهم في هذا العمل فبين لي ان دولته تحب تعضيد هذا العمل والاشتراك المسلمين الذين تحت نفوذها فيه مادام على ما وضعته عليه من البعد عن السياسة واضرني انه كتب بذلك الى نظارة الخارجية والى سفيرهم بمصر وانه سيكتب ثانيا

هذا ما احببت ان اعرضه عليكم الآن ثم أذكر سموكم باشتراك مجلة المنار فيها ترسل لسموكم دائما وقد تقدم منذ خمس سنين مجلدات من زنجبار ثمنها ستة جنيهات انكليزية وصلت ما بمصر ولم تأمروا بدفعها لي وسموكم أولى من جميع سلاطين المسلمين واسرائهم بمعالي المنار ولعلكم تأمروا بدفع ثمن المجلدات الاربع المتأخرة

ملحق (٥)

رسالة من جرجي زيدان إلى سلطان زنجبار، ٣٠ أكتوبر ١٨٩٩م،

(ZA-5-25)

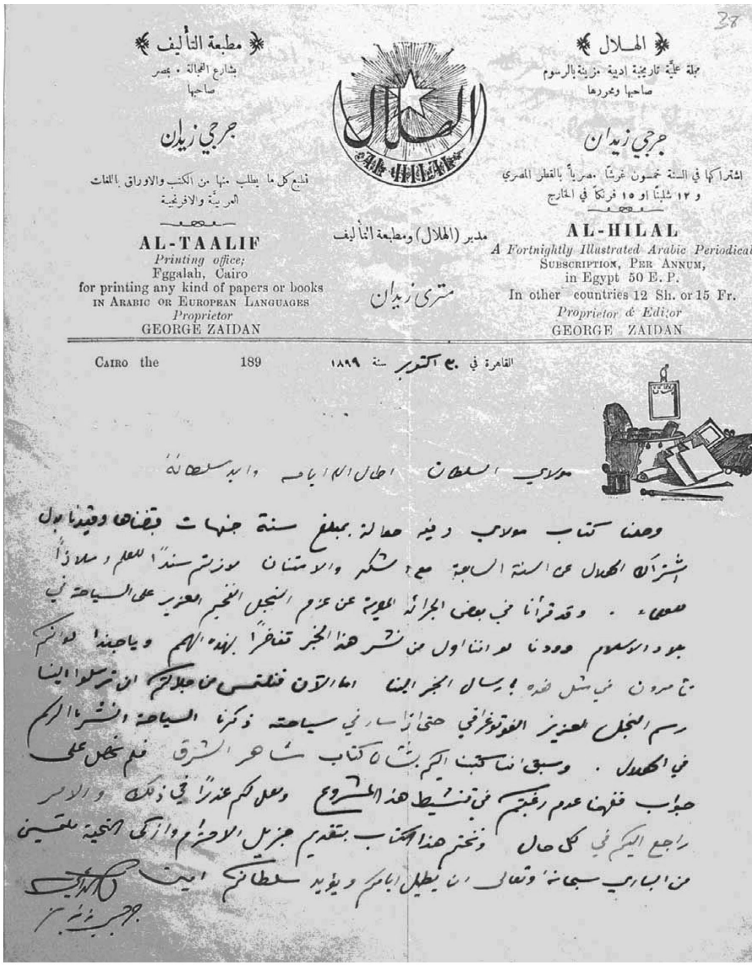

مطبعة التأليف
بشارع الفجالة - بمصر
صاحبها
جرجي زيدان
تطبع كل ما يطلب منها من الكتب والاوراق باللغات العربية والافرنجية
AL-TAALIF
Printing office;
Fggalah, Cairo
for printing any kind of papers or books
IN ARABIC OR EUROPEAN LANGUAGES
Proprietor
GEORGE ZAIDAN

الهلال
مجلة علمية تاريخية ادبية مزينة بالرسوم
صاحبها ومحررها
جرجي زيدان
اشتراكها في السنة خمسون غرشاً مصرياً بالقطر المصري
و ١٢ شلناً او ١٥ فرنكاً في الخارج
AL-HILAL
A Fortnightly Illustrated Arabic Periodical
SUBSCRIPTION, PER ANNUM,
in Egypt 50 E. P.
In other countries 12 Sh. or 15 Fr.
Proprietor & Editor
GEORGE ZAIDAN

مدير (الهلال) ومطبعة التأليف
متري زيدان

CAIRO the 189 القاهرة في ٣٠ اكتوبر سنة ١٨٩٩

مولاي السلطان اطال الله ايامه وايد سلطانه

وهذا كتاب مولاي وفيه حسابه بمبلغ سنة جنيهات قبضناها وقيدناها اول شهر اكتوبر من السنة الجارية مع الشكر والامتنان موزتم سنداً للعلم وملاذاً للعلماء . وقد قرأنا في بعض الجرائد الغيرة عن عزم النجيل المبجل المعزز على السياحة في جهات زنجبار وودنا لو اننا اول من نشر هذا الخبر تفاخراً بهذه المهمة ويا حبذا لو كنا مع مرون في مثل هذه الايام اما الآن فنلتمس من جلالكم ان ترسلوا الينا رسم النجيل المعزز الفوتوغرافي حتى نأتي بسياحته ذكرى السياحة الشريفة الى الهلال . وسبق لنا ان كتبنا اليكم بشأن كتاب شاعر الشرق فلم نحظ على جواب فنهنا عدم رغبتكم في تنشيط هذا المشروع ولعلكم عذرتنا في ذلك والامر راجع اليكم في كل حال ونختم هذا الكتاب بتقديم جزيل الاحترام وازكى التحية ملتمسين من الباري سبحانه وتعالى ان يطيل ايامكم ويؤيد سلطانكم امين

جرجي زيدان

ملحق (٦)
الشيخ البرواني في طريقه لحضور جلسة في المجلس التشريعي
(الرابع من يسار الصورة)

ملحق (٧)
خارطة توضّح مسار رحلة أبي الحارث البرواني

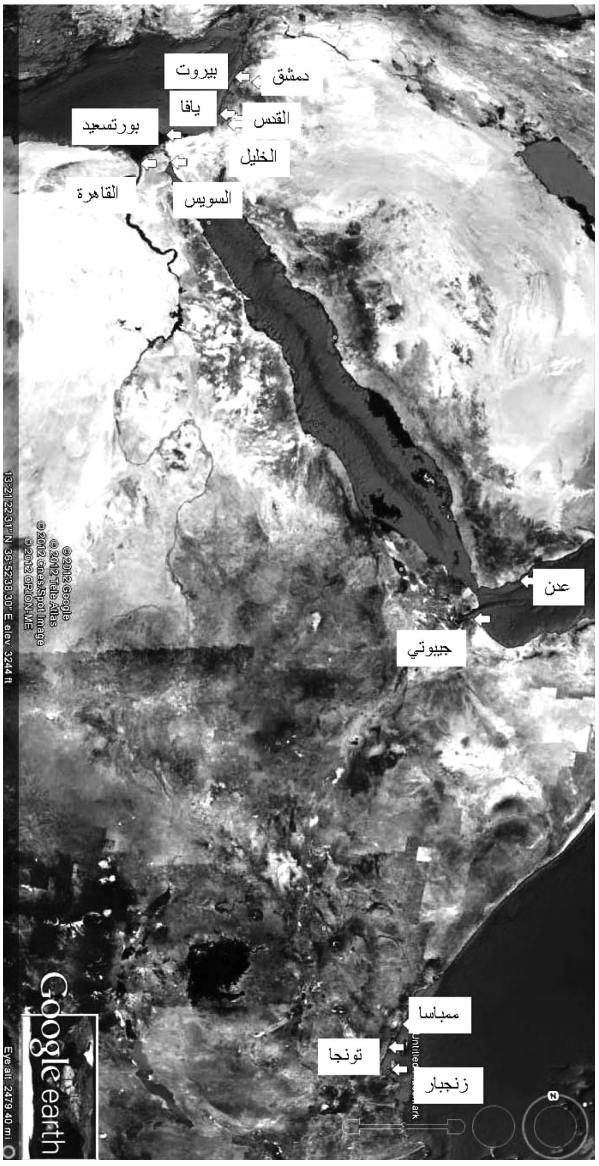

ملحق (٨)
رحلة أبي الحارث، طبعة زنجبار ١٩١٥م

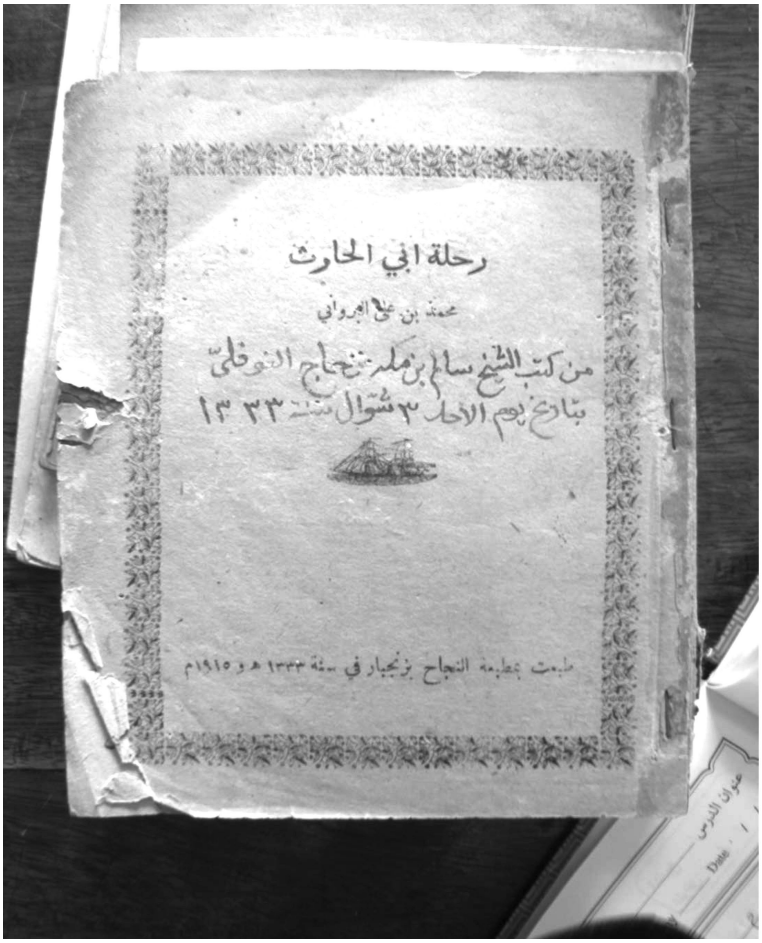
رحلة ابي الحارث

محمد بن علي الهرواني

من كتب الشيخ سالم بن سلمة نجاح النوفلي

بتاريخ يوم الاحد ٣ شوال سنة ١٣٣٣

طبعت بمطبعة النجاح بزنجبار في سنة ١٣٣٣ هـ و ١٩١٥م

ملحق (٩)

رحلة أبي الحارث، طبعة مسقط ٢٠١٠م